القسم الخامس

أسس التشريع الإسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

أسس التشريع الإسلامي

التشريع الإسلامي يقوم صرحه ويتركز بناؤه على كثير من الأسس الثابتة والدعائم القوية التي تكفل تحقيق السعادة الكاملة للناس في حياتهم وأخراهم.

ومن أهم الأسس ما يأتي:

١- غرس بذور العقيدة الصحيحة في النفوس.

٢- العبادة الخالصة لله تعالى.

٣- تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم.

٤- التيسير وعدم الحرج.

٥- تحقيق مبدأ المساواة بين الناس جميعاً.

٦- العدالة في القضاء.

٧- الشورى في الحكم.

٩ إيجاد مجتمع قوي فاضل.

هذه هي أهم أسس التشريع الإسلامي وسنلقي بصيصاً من الضوء على كل منها في مبحث خاص إن شاء الله تعالى.

* * *

obeikandl.com

الأساس الأول:

غرس بذور العقيدة الصحيحة في النفوس

إن غرس بذور العقيدة الصحيحة في النفوس يعتبر من أجل أهداف الشريعة الإسلامية ومن أسمى مقاصدها وإن كانت كل أهدافها سامية.

والعقيدة الصحيحة في الإسلام تتمثل في الإيمان بوحدانية الله تعالى واتصافه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص، وأنه الخالق والمدبر للكون والإيمان بالملائكة والرسل والكتب المنزلة من قبل الله تعالى عليهم، والإيمان بالبعث والحشر والثواب والعقاب والجنة والنار، والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره.

هذه هي ركائز العقيدة الإسلامية، وهذه الركائز تعتبر هي الأساس القوي الذي يقوم على متنه صرح الشريعة شامخا.

وهذه العقيدة إذا خالطت بشاشتها النفوس وامتزجت بالأفئدة وسرت كالنور في حنايا القلوب، وعانقت المهج والأرواح غدت نقية طاهرة متقدة في أعماق المؤمن تدفعه إلى تنفيذ أحكام الله وتعاليمه والتضحية في سبيله بالمال والنفس دونما تردد ولا وجل، بل يفعل ذلك كله بكل سعادة ورضا.

ومن ثم فالعقيدة الصحيحة القائمة على مبدأ التوحيد الخالص من كل شوائب الشرك تخلق صاحبها خلقا آخر فتحرره من العبودية لغير الله تعالى، فلا يخشى أحدًا إلا الله ولا يذل إلا له ولا يرجو أحدًا سواه حيث لا يملك النفع ولا الضرر ولا الحياة ولا الموت إلا هو ﷻ.

وإذا كان المؤمن يوقن كل الإيقان أنه لا يملك الضرر ولا النفع إلا الله، فما حاجته لأن يتملق هذا أو ينافق ذاك مهما كان منصبه أو مركزه الاجتماعي.

ومن ثم نجد المؤمن الحقيقي دائما قويًّا بالله شجاعا في الحق لا يبالي في سبيل الله وسبيل دينه وعقيدته بأي كائن من كان، لأن الحياة نفسها بكل ما فيها ومن فيها لا تساوي شيئا في نظر بالنسبة لما ينشده ويرجوه في الآخرة.

وانظروا إلى سحرة فرعون كيف كانوا قبل أن يغمر نور الإيمان قلوبهم بلحظة واحدة وكيف غدوا بعد ذلك؟ إنهم قبل الإيمان كانوا يحترفون صناعة الوهم ويتاجرون في التضليل والخداع والتمويه المتمثلة في السحر، ولم يكن لهم من حافز على ذلك سوى الجشع والشراهة للمال.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ١١٢ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾[1].

وفي نفس هذا المعنى يعبر القرآن الكريم بأسلوب آخر يقول الله تعالى فيه: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ ﴾[2].

هذا هو حالهم قبل الإيمان، وأما بعد الإيمان فيكفينا هنا هذا العرض الرائع للقرآن الكريم عنهم إذ يقول ﷻ: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[3].

(١) الآيات ١١١-١١٦من سورة الأعراف.
(٢) الآيات ٦٣-٦٦ من سورة طه.
(٣) الآيات ١١٧ - ١٢٦ من سورة الأعراف.

وفي سورة طه يقول الله ﷻ: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (١).

وهكذا نرى كيف تحولوا فجأة من حياة الكذب والخداع والتمويه إلى نورانية الصفاء والنقاء والصدق والإخلاص واليقين إلى التفاني في الله ﷻ وعدم المبالاة بكل ما يهددهم به فرعون من صلب وتقطيع للأيدي والأرجل.

وكيف يأبهون بأي وعيد أو تهديد وقد رأو برهان الله ماثلاً أمام أعينهم، رأوا أمرا عجيبا لا عهد لهم به من قبل ولا يمكن أن يكون من صنع بشر بل لابد وأن يكون من صنع الله تعالى؛ لأن قدرته فوق كل القدر، ورأوا جمادا يتحول إلى حيوان مفترس، ورأوا عصا حقيقية تتحول إلى حية حقيقية تلقف كل حبالهم وعصيهم، وتلقف كل ما صنعوا من كذب وخداع وتضليل مثلما كانوا يفعلون، إنهم أدرى الناس جميعا بحدود قدراتهم وإمكاناتهم، بل وأدرى الناس أيضا بأن حبالهم وعصيهم لم تتحول إلى ثعابين أبدا، وأن ذلك ليس في مقدورهم على الإطلاق، وأن كل ما فعلوه لم يكن إلا من قبيل الخداع والإيهام للآخرين ليس إلا، وأن الإنسان إذا استطاع خداع الناس جميعا والكذب عليهم فلا يستطيع أبدا خداع نفسه التي بين جنبيه، ومن ثم فقد أيقنوا كل الإيقان أن موسى ليس إلا نبيًّا ورسولا، وأن ما تحقق على يديه ليس إلا معجزة من صنع الله تعالى، ولذا فلابد أن يعلنوا هذه الحقيقة أمام الناس جميعا وأمام فرعون نفسه دونما خوف من بطشه، أو رهبة من تهديده، ولابد لهم أن يخروا سجدا لله رب العالمين.

وهذا هو شأن العقيدة دائماً وما تفعله في نفوس المؤمنين الصادقين

(١) الآيات ٦٧-٧٣ من سورة طه.

كما سبق أن ذكرنا.

منهج الشريعة تجاه نشر العقيدة الإسلامية:

لقد سنت الشريعة الإسلامية منهجاً مثالياً فريدا تجاه نشر مبادئ هذه العقيدة وغرسها في النفوس.

ومن أبرز ما يتسم به هذا المنهج يتمثل في الآتي:

١- الدعوة إلى الله بالحكمة وعدم الإكراه:

الأمور العقائدية لا مجال للإكراه فيها على الإطلاق ولا يمكن اعتناقها إلا عن طريق الاقتناع، ولو حدث إكراه فيها يكون من اليسير على الشخص أن يظهر ما يبطنه ويصر في أعماقه على التمسك بما كان يعتقده من قبل، ويزداد عناداً وتشبثاً به، ويتضاعف حقده وكراهيته لهذا الدين الذي أكره على اعتناقه فيعمل في الخفاء على تقويضه، ويتربص به الدوائر، ويتحين الفرص للانقضاض عليه بكل ما يضطرم في نفسه من حقد وما يعتمل فيها من بغضاء تجاهه وتجاه كل من ينتسبون إليه.

ومن ثم فالإكراه في الأمور العقائدية ضرره أكثر من نفعه، بل لا يتحقق منه أي نفع على الإطلاق، ولا يمكن فيه أن يصل من قام بالإكراه إلى غرضه، بل الذي يحصل منه هو النقيض دائماً.

لهذا قد عمدت الشريعة إلي تنحية مبدأ الإكراه جانبا في مجال الدعوة لأن الله ﷻ مطلع على النفوس ومحيط بخباياها ويعلم سرها ونجواها - إذ يقول ﷻ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (١)، ويقول: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾(٢)، ويقول: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (٣).

وإذا كان الله مطلعا على القلوب كما هو ثابت من هذه النصوص وغيرها فلا يمكن أن يقر الإكراه أو يعتبره وسيلة إلى اعتناق العقيدة

(١) الآية ١٩ من سورة غافر.
(٢) الآية ٣٢ من سورة النجم.
(٣) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة.

حيث لا جدوى من إقراره.

لهذا كان الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة هو أساس الدعوة إلى الله تعالى، وكان الإكراه هو أبعد ما يكون عنها.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥).

ويقول: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (٦).

ويقول: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٧).

ويقول: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (٨).

ويقول: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٩).

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل.
(٢) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت.
(٣) الآية ٦٤ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٩٩ من سورة يونس.
(٦) الآية ٢١، ٢٢ من سورة الغاشية.
(٧) الآية ٥٤ من سورة النور.
(٨) الآية ٤٨ من سورة الشورى ونص الآية: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾.
(٩) الآية ٤٥ من سورة ق.

٢- الحث على التدبر وإعمال العقل:

العقل هو مناط التكليف في الإسلام ولا يمكن معرفة الحق إلا عن طريقه، وهو أثمن جوهرة في الوجود وأعظم نعمة من الله بها على الإنسان.

ومن ثم نرى الشريعة قد اهتمت به غاية الاهتمام وأحاطته بعنايتها ورعايتها وأنزلنه أسمى مكانة فيها، ويكفي أنها عهدت إليه بالاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها.

وما أكثر الآيات القرآنية التي تحث على إعمال العقل والنظر في ملكوت السموات والأرض، والتأمل في نشأة الإنسان وتكوينه والتدبر في سائر نعم الله ومخلوقاته للوقوف على قدرته تعالى وعظمته.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[1].

ويقول: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2].

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ

(١) الآيتان ١٩٠، ١٩١ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٦٤ من سورة البقرة.

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

ويقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ

(١) الآيات ٩٦-٩٩ من سورة الأنعام.
(٢) الآيات ٢-٤ من سورة الرعد.
(٣) الآيات ١٠-١٨ من سورة النحل.

يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

ويقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2].

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[3].

ويقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[4].

ويقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[5].

---

(١) الآيات ٦٦-٩٦ من سورة النحل.
(٢) الآيتان ٧٨، ٧٩ من سورة النحل.
(٣) الآيات ٥-٧ من سورة الحج.
(٤) الآية ٤٦ من سورة الحج.
(٥) الآيات ١٢-٢٢ من سورة المؤمنون.

ويقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ

(١) الآيتان ٦٥، ٦٦ من سورة الحج.
(٢) الآيات ٥٣-٥٥ من سورة الفرقان.
(٣) الآيات ١٧-٢٥ من سورة الروم.
(٤) الآيتان ٢٧-٢٨ من سورة لقمان.

مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٥).

ويقول: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً

(١) الآية ١٢ من سورة فاطر.
(٢) الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة فاطر.
(٣) الآيات ٣٦-٤٠ من سورة يس.
(٤) الآيات ٧٧-٨٣ من سورة يس.
(٥) الآيات ٤٩-٥٠ من سورة الشورى.

مَّيِّتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٥).

ويقول: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ (٦).

هذا هو جانب الآيات القرآنية التي تكشف لنا عن مدى عظمة الله تعالى وقدرته وأنه الخالق والمدبر للكون والتي تحث على النظر في ملكوت السماوات والأرض وكيفية خلق الإنسان. وكيف أنه تعالى حكيم عليم مطلع على كل شيء حتى سرائرنا ونجوانا.

ويلاحظ أن أكثر هذه الآيات ينتهي بقوله تعالى: ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أو ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ أو ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أو ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أو ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

(١) الآيات ٦-١١ من سورة ق.
(٢) الآيتان ١٥، ١٦ من سورة ق.
(٣) الآيات ٢٠-٢٣ من سورة الذاريات.
(٤) الآيات ١-٩ من سورة الرحمن.
(٥) الآيات ١-٤ من سورة الملك.
(٦) الآيات ٥-١٠ من سورة الطارق.

﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾...إلخ.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإسلام قد رفع شأن العقل إلى أبعد مدى، ومما يؤكد ذلك أن كل خطاب للشرع موجه إليه حيث لا يمكن الوقوف على أسرار الله في الكون إلا عن طريقه ولا سبر كنه آياته تعالى إلا به، ولا التمييز بين الخير والشر ولا بين الضلال والهدى إلا بتوجيهاته إذا سلك صاحبه المنهج الصحيح للتفكير.

ومن ثم فليس الإسلام عدو للعقل كما يزعم بعض من في قلوبهم مرض، وكيف يكون عدوا له بينما لا تفهم مبادئ الإسلام وتعاليمه إلا به؟ كيف يكون الإسلام عدوا للعقل بينما هذا العقل هو همزة الوصل الحقيقية بينه وبين الناس؟

ولكن أي عقل هذا الذي يكرمه الإسلام كل هذا التكريم، إنه ليس عقل المكابرين المعاندين الذين يرون الحق رأي العين ولكنهم يتعالون عليه ويأبون الخضوع له أنفة وغرورا.

ولا عقل الضعفاء الأذلاء الذين يتبعون سادتهم وكبراءهم بغير بينة أو دليل، ولا عقل الذين يصرون على اتباع آبائهم ولو كانوا في ضلال مبين.

إنه عقل الباحثين عن الحق المتجردين عن التعصب والهوى.

٣- بيان آفة الفكر لدى غير المؤمنين:

يبين القرآن الكريم أن عدم إيمان الكفار مرجعه بالدرجة الأولى إلى واحد من أمرين: إما التبعية العمياء دون دليل، وإما العناد والكبر.

ومن ثم فقد حمل القرآن على هذين المسلكين حملة عارمة نعرض منها الآتي:

أ- موقف القرآن من المقلدين غير الآخذين بالدليل:

إذا كان الإسلام قد كرم العقل وكرم من يعملون عقولهم إلى أبعد حدود التكريم إذا تجردوا عن العصبية والهوى فإنه في الوقت ذاته قد شن حملة شعواء على الذين يهدرون هذه العقول، ويرتمون في أحضان التبعية والتقليد دون أي مستند من بينه، أو دليل.

وقد عبر القرآن الكريم عن هؤلاء المقلدين بتعبيرات كثيرة مختلفة تليق بهم.

فوصفهم بالصم وبالعمى، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١).

ووصفهم بالبكم وبأنهم شر الدواب، إذ يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢).

واعتبرهم أضل من الأنعام، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (٣).

وإذ يقول: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤).

ولم يقف القرآن بهم عند هذا الحد، بل اعتبرهم كالموتى تماماً، إذ ما قيمة إنسان قد فرض على نفسه تعطيل عقله وجميع حواسه؟

ومن ثم يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٥).

وفي مجال تنديد القرآن الكريم بالذين لا يعملون عقولهم نراه أيضاً يندد حتى بالذين يحفظون تعاليمه دونما وعي ولا إدراك ودونما تفهم وتدبر لما فيها من مبادئ وقيم ولذا يقول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

(١) الآيتان ٤٢، ٤٣ من سورة يونس.
(٢) الآيتان٢٢، ٢٣ من سورة الأنفال.
(٣) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.
(٤) الآية ٤٤ من سورة الفرقان.
(٥) الآيتان ٥٢، ٥٣ من سورة الروم.

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١).

فهؤلاء الذين لم يتفهموا ما يحفظونه ولم يتدبروه ولم يحاولوا العمل بمقتضاه والانتفاع به هم في نظر الإسلام كالحمير التي تحمل كتب وأسفارا ليس إلا، وهؤلاء لا يختلفون عن المكذبين لأحكام الله وتعاليمه.

ويعقد القرآن الكريم مقارنة بين الذين يعملون عقولهم للوصول إلى الحق وبين الذين يهدرون هذه العقول فيعتبر أولئك الآخرين كالعميان تماما ومن ثم يقول الله تعالى:﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (٢).

وفي هذا المجال أيضاً نرى القرآن الكريم يحمل حملة شعواء على الذين يرتمون في أحضان التقليد لغيرهم دونما نظر ولا وعي، ولا تمعن في أقوال هؤلاء الذين يقلدونهم وما إذا كانت صوابا أم خطأ، ومن ثم يقول الله تعالى بشأن هؤلاء.

قوله:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (٣).

وكان هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد هو العقبة الكؤود أمام دعوات الأنبياء والمرسلين.

فهؤلاء قوم صالح عليه السلام يقول الله تعالى فيهم: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ (٤).

وهؤلاء قوم شعيب عليه السلام يقول الله تعالى فيهم:﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (٥). وقد قالوا ذلك تهكما واستهزاء.

(١) الآية ٥ من سورة الجمعة.
(٢) الآية ١٩ من سورة الرعد.
(٣) الآية ١٧١ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٦٢ من سورة هود.
(٥) الآية ٨٧ من سورة هود.

وفي شأن قوم موسى عليه السلام يقول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وفي شأن إبراهيم وقومه يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ (٢).

وفي شأن كفار مكة يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣).

ويعرض القرآن الكريم مشهدا من مشاهد يوم القيامة يستعرض فيه حوارا بين المستضعفين الذين أهملوا عقولهم وألغوا تفكيرهم وركنوا إلى تقليد سادتهم وكبرائهم فيما يتعلق بشأن رسالة النبي محمد ﷺ وبين هؤلاء الكبراء الذين أضلهم عن الهدى. وذلك إذ يقول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤).

والهدف من عرض مثل هذا الحوار في القرآن الكريم هو تنبيه هؤلاء المستضعفين وأمثالهم ألا ينخدعوا بالذين يزينون لهم القول ولا يركنوا إليهم حيث لا حجة لهم في ذلك أمام الله عز وجل لأن الواجب عليهم أن

(١) الآيات ٧٦-٧٨ من سورة يونس.
(٢) الآيات ٥١-٥٣ من سورة الأنبياء.
(٣) الآية ٤٣ من سورة سبأ.
(٤) الآيات ٣١-٣٣ من سورة سبأ.

يعملوا عقولهم التي منحهم الله إياها وأن يفكروا بأنفسهم في مبادئ هذه الرسالة وتعاليمها دونما تأثر بغيرهم، فهؤلاء الذين يقتدون بهم اليوم بلا وعي ولا تفكير سيتبرؤون منهم يوم القيامة، ولن ينفعوهم بشيء وسيندمون جميعا ولآت ساعة مندم.

وفي معرض آخر يبين القرآن الكريم موقف هؤلاء المضلين ممن اتبعوهم على غير بينة ولا هدى وكيف أنهم سيتبرءون منهم يوم القيامة، إذ يقول الله ﷻ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (١).

ومن المشاهد التي عرضها القرآن الكريم لهؤلاء الذين اتبعوا غيرهم بلا تعقل ولا تفكر قوله تبارك وتعلى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (٢).

حسرة وندم ولوعة وأسى وسخط عارم على هؤلاء الذين أضلوهم السبيل، ولكن الذنب في النهاية هم ذنوبهم أنفسهم حيث أهملوا نعمة العقل وعطلوها فانخدعوا بمكر سادتهم وكبرائهم ولا بد لهم وأن ينخدعوا ماداموا قد رضوا لأنفسهم بالتبعية العمياء.

وفي مشهد آخر من مشاهد الحسرة والندم والغيظ ممن غرروا بهم يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ (٣).

ومن هذه المشاهد أيضاً قوله ﷻ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ

(١) الآيتان ١٦٦، ١٦٧ من سورة البقرة.
(٢) الآيات ٦٤-٦٨ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية ٢٩ من سورة فصلت.

أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (٢).

وحتى الشيطان سيتبرأ منهم في الآخرة أيضاً، ولذا يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣).

ب- موقف القرآن من المعاندين المتكبرين على الحق:

إذا كان عدم إيمان البعض في عهد الرسالة المحمدية وعهود الأنبياء السابقين مرجعه إلى التقليد الأعمى للآباء والأجداد وغيرهم - كما سبق أن ذكرنا - فإن عدم إيمان الآخرين كان مرجعه الصلف والعناد والتعالي على الحق والاستهانة بقدر الأنبياء والمرسلين، لأن مقاييس عظمة الرجال عندهم تتمثل في أمور مادية بحتة ومظاهر دنيوية لا في قيم أخلاقية عليا. ولا في مبادئ وتعاليم ربانية سامية.

وكان هذا الصنف من الناس آنذاك يتمثل في كبراء القوم وزعمائهم وأرباب الكلمة المسموعة فيه، ومن ثم كان خطرهم أعظم، لأن ضررهم لم يكن قاصراً على ذواتهم وأشخاصهم وإنما كان يمتد إلى الحواشي والأتباع

(١) الآيات ٣٧-٣٩ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ٢١ من سورة إبراهيم.
(٣) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

والطبقات الدنيا من الشعب بشكل عام بحكم الحاجة إليهم والخضوع لهم، ولذا فقد كانوا يمثلون أكبر عقبة في طريق الدعوة أمام الأنبياء والمرسلين جميعاً.

وإذا كان القرآن الكريم قد عنف المقلدين في أمور العقيدة تعنيفاً بالغا كما عرفنا، ووصفهم بالصم والبكم واعتبرهم كالأنعام والأموات، فإنه أيضاً قد كشف عن حقيقة هؤلاء المعاندين، وفضح أمرهم، ومرغ برقع الكبر الذي يتشحون به في الوحل وتوعدهم بأقسى أنواع العذاب في الآخرة.

وقد ضرب القرآن الكريم أمثلة كثيرة لعنادهم وعرض صوراً متعددة لتعنتهم.

ومن هذه الصور قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

ومن هذه الصور قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة.
(٢) الآيات ٧-٩ من سورة الأنعام.
(٣) الآيات ٩٠-٩٥ من سورة الإسراء.

مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢).

فلو كان امتناعهم عن الإيمان هنا بسبب الاقتناع بأدلة عقلية منطقية لهان الأمر، ولكنه للأسف البالغ بسبب التعالي والكبر ليس إلا، فقد صور لهم غرورهم أنه لا يجوز لمن في مثل مكانتهم الرفيعة ومنزلتهم العالية أن يتبع مثل محمد الذي نشأ يتيماً وعاش فقيراً.

فهم لم يشغلوا أنفسهم في بحث المنهج الذي جاء به، ولم يتعمقوا المبادئ والتعاليم التي دعاهم إليها حيث لا يعنيهم ذات المنهج في قليل أو كثير وإنما كل الذي يعنيهم هو مدى ما يتمتع به هذا الداعي من مكانة اجتماعية معينة بين الناس، ومدى حاله من جاه وقوة ونفوذ ومدى ما يملكه من مال وما عنده من بنين ومن خدم وحشم وغير ذلك من كل المظاهر الدنيوية الفانية، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على فراغ تام في عقليتهم واعوجاج في فكرهم، وانحراف في طبيعتهم، وما ذلك إلا بسبب الكبر الذي أعماهم عن رؤية الحق.

ونفس التعالي الزائف والكبر والغرور الأجوف هو الذي أعمى فرعون عن الحق استهانة بشأن موسى عليه السلام، إذ يقول الله ﷻ: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى

(١) الآيات ٦-١٥ من سورة الحجر.
(٢) الآيتان ٣١، ٣٢ من سورة الزخرف.

مِن تَحۡتِيۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾ (١).

أجل إنها نفس المقاييس المادية التافهة التي لا اعتبار لها على الإطلاق إذا قيست بمناهج النبوة والرسالات.

وكذلك قوم نوح لم يكن ثمة منطق لهم في مجادلته إلا منطق الغطرسة والصلف إن سمي هذا منطقاً.

إذ يقول الله تعالى في شأنهم معه: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٢).

فمن وجهة نظرهم أن العيب الحقيقي في دعوة نوح والذي منعهم من الاستجابة له ليس في ذات المنهج الذي جاءهم به وإنما هو اتباع البسطاء من الناس له فكيف يتساوون مع هؤلاء الرعاع في اتباعه؟ إنه لمنطق عجيب أملاه عليهم شيطان الغرور والكبر ليس إلا.

وأيضا كان نفس العناد والكبر هو الحائل الوحيد دون إيمان قوم عاد وثمود، إذ يقول الله تعالى في شأنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ (٣).

---

(١) الآيات ٥١-٥٦ من سورة الزخرف.
(٢) الآيات ١٠٥-١١٥ من سورة الشعراء.
(٣) الآيات ١٥-١٧ من سورة فصلت.

فقوم عاد كانت غطرسة القوم الغشوم هي التي دفعتهم إلى التمادي في الكفر والضلال حيث قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فنسوا أو تناسوا إن قوة الله تعالى وقدرته فوق كل القوى والقدر وكأنهم بذلك يردون على أنبيائهم الذين يتوعدونهم بعذاب الله ﷻ.

وأما قوم ثمود فكان العناد القاتل يغلب عليهم ويسري في دمائهم حتى جعلهم يفضلون الضلال على الهدى فجر عنادهم عليهم وبال العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

ونعود مرة أخرى إلي نوح عليه السلام وإلى قومه لنرى هذا المشهد العجيب الذي يحكيه القرآن الكريم عنهم إذ يقول الله ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (١).

وهكذا نرى أن العناد قد وصل بهم إلى الحد الذي يدفعهم إلى وضع أصابعهم في أذانهم حتى لا يسمعوا كلمة الحق ورسالة الوحي وهدي السماء ثم يستغشوا ثيابهم حتى لا يروا نوحاً عليه السلام، إذ إن مجرد رؤيته تسبب لهم ضيقاً بالغاً لا يقوون على احتمالها. فأي عناد وأي صدود عن الحق يمكن أن يصل بصاحبه إلى مثل هذا الحد؟

وعلى ذلك فالقرآن الكريم يبين لنا أن الفطرة النقية التي فطر الناس عليها لو خلصت من شوائب التقليد الأعمى ومن العناد والكبر لابد وأن تصل بصاحبها إلى شاطئ الإيمان واليقين والهدى، ومن ثم يقول الرسول ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**». ومن ثم فلا تعارض أبدا بين العقل السليم القويم الرشيد وبين هدي الإسلام وتعاليمه، إذ إن مثل هذا العقل لابد وأن يسلم بها ولابد وأن يذعن لها.

٦- إثبات وحدانية الله ونفى الشريك عنه بأدلة عقلية قاطعة لا مجال لإنكارها:

وانطلاقا من مبدأ الإقناع العقلي فيما يتعلق بأمر العقيدة نرى القرآن الكريم يورد الكثير من البراهين العقلية القاطعة على وحدانية الله تعالى

(١) الآيات ٥-٧ من سورة نوح.

وقدرته ونفي الشريك والصاحبة والوالد والولد عنه.

والآيات القرآنية الو رادة في هذا الشأن نذكر منها الآتي:

يقول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١).

فهذه الآيات البينات قد تضمنت الكثير من نعم الله وآلائه العظمى وأشارت إلى إعجازه تعالى في خلق السماوات والأرض وسائر الأشياء التي تضمنتها هذه الآيات.

ثم كان التحدي واضحاً وصريحاً في كل آية لأولئك الذين يعبدون غير الله متضمنا أسئلة تعجيزية لهم. من الذي خلق هذه الأشياء العظيمة غير الله؟ ومن الذي أوجد تلك النعم القيمة غير الله؟ إن كان هناك إله آخر أوجدها فما دليلكم وما برهانكم إن كنتم صادقين؟ فالدعاوى لا تقبل جزافا إلا إذا اقترنت بالدليل.

ومن البديهي إنه لا يمكن أن يوجد لديهم أي دليل على ذلك وإلا فهذه الأسئلة قد مر عليها قرون وقرون، ومازالت قائمة تعلن التحدي، ولم تحظ أيضاً بأي إجابة منهم، ولن تحظ أيضاً بأي إجابة لديهم اللهم، إلا العجز والتخبط والخزي والهوان.

ونعجب والله من هؤلاء كل العجب لأنهم إذا كانوا لم يستطيعوا أن يجيبوا على هذه الأسئلة فلماذا لم يذعنوا؟ ولماذا لم يؤمنوا؟ لماذا استمروا رغم ذلك في كفرهم وضلالهم؟ إنه العناد والكبر أو التقليد الأعمى كما

(١) الآيات ٦٠-٦٤ من سورة النمل.

ذكرنا آنفاً أو هما معاً؟ إنها آفة العقل وأزمة الفكر عند غير المؤمنين.

وفي معرض آخر يقول الله ﷻ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١).

فهذه الآيات تتضمن برهانا قاطعاً أيضاً على وحدانية الله تعالى ولا يملك العقل السليم إزاءها إلا الإذعان والتسليم.

فالشأن في الإله أن يكون قريباً قادراً قهاراً لا راد لفعله ولا معقب لأمره ولا سلطان لأحد عليه ولا يمكن أن يتحقق هذا في إلهين معاً.

ولو كان ثمة إلهان جدلاً، وأراد أحدهما إيجاد شيء معين وأراد الآخر عدم إيجاده فلا يخرج الأمر عن الحالات الآتية:

١- أن ينفذ مرادهما معا وهذا محال لأنه يؤدي إلى إيجاد الشيء وعدم إيجاده في آن واحد وهذا لا يمكن حدوثه ويستحيل تحقيقه.

٢- أن يمنع مرادهما معاً فيكون كل منهما عاجزاً عن تحقيق مراده. فلا يكون إلهاً. ومن ثم تنتفي الألوهية عن كليهما.

٣- وإن نفذ مراد أحدهما دون الآخر يكون هو الإله دون الآخر. ومن ثم فكل الأدلة العقلية السليمة توجب وحدانية الله تعالى وتنفي أي شريك له في ملكه تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.

ولو كان ثمة إلهان جدلاً أو أكثر لترتب على ذلك فساد الكون كما تنص الآية الكريمة، إذ لابد من وقوع الصراع بينهما حول قضايا الخلق والإيجاد من عدمه. ولنا أن نتصور أبعاد صراع بين إلهين، ونتصور مدى نتائجه ومخاطره على الكون! إنه الفساد المحقق كما تنص الآية الكريمة. ولكن الواقع غير ذلك كما هو شاهد للجميع منذ أن خلق الله السماوات وما فيها والأرض وما عليها، الكل في ذلك يسبحون والكل يحكمه نظام محكم دقيق لم يتغير قيد أنملة ولم يحد عن مساره مقدار

(١) الآيات ٢٢-٢٤ من سورة الأنبياء.

خردلة. ألا يدل هذا كله على أن وراءه إرادة واحدة حكيمة عليها لا تعلوها أي إرادة أخرى.

ومما يؤكد استحالة وجود أكثر من إله قول الله ﷻ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

فالآية الأولى من هاتين الآيتين تبين أن تعدد الآلهة يترتب عليه وقوع الصراع بينهم حتما حيث لا يقبل أي واحد منهم أن يشاركه غيره في الحكم والخلق لأن من خصائص الألوهية العظمة والقدرة والكبرياء والتفرد بالحكم.

وإذا وقع الصراع بينهم لفسد الكون كما ورد في الآيات السابقة ولكنه لم يفسد، إذن ليس ثمة إله آخر.

وإمعاناً في التحدي للذين يزعمون أن لله ولدا نجد القرآن الكريم يوجه الخطاب للنبي ﷺ من قبل الله ﷻ أن يجاريهم في الحديث ويستدرجهم في القول لإقامة الحجة عليهم إذ يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ (٢).

أجل قل لهم: هذا يا محمد، ولكن فقط عليهم إقامة الحجة والدليل على أن لله ﷻ ولد فيا ترى هل لديهم أي حجة وأي دليل؟ بالطبع لا يوجد لديهم شيء من ذلك، وإنهم أول من يدركون هذا.

وهذا الأسلوب إنما هو أسلوب تهكمي قصد به الإهانة والتبكيت وإظهار مدى ضآلة عقولهم وضحالة تفكيرهم.

وتستمر الآيات المتعلقة بإثبات الوحدانية لله تعالى ونفي الشريك عنه تترى في مواطن كثيرة من كتاب الله العزيز متضمنة البراهين العقلية المفحمة لكل مكابر عنيد.فمن ذلك قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ

(١) الآية ٩١، ٩٢ من سورة المؤمنون.
(٢) الآية ٨١ من سورة الزخرف.

ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (١).

منتهى الاستخفاف بهم والامتهان لقولهم أن تكون آلهتهم التي يعبدونها من دون الله من العجز والضعف بحيث لا تستطيع خلق ذبابة حتى وإن اجتمعت كل هذه الآلهة المزعومة وتعاونت على خلقها فلن يستطيعوا ذلك أبدا.

وذكر الذبابة هنا باعتبار أنها أهون المخلوقات في نظرنا، وكأنه تعالى يقول لهم: إذا عجزت آلهتكم المزعومة عن خلق أهون المخلوقات في نظركم فكيف بخلق السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن؟

ولا يقف التحدي لهم ولا السخرية من عقولهم عند هذا الحد، وإنما تمتد الاستهانة بهم والاستخفاف بهم والاستخفاف بتفكيرهم إلى درجة تبصيرهم بأن هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ليست عاجزة عن خلق ذبابة وفقط وإنما هي أعجز من ذلك بكثير أنها أعجز عن رد أقل شيء يسلبه الذباب منها، فرغم ضعف الذبابة، ورغم ضآلة ما يمكن أن تسلبه منهم إلا أنهم مع ذلك أعجز عن استرداد هذا الشيء القليل من ذاك المخلوق الضئيل؟ فكيف بالله يمكن أن يكون أمثالهم آلهة؟ وكيف يسوغ لأي عاقل أن يعبد أمثال هذه الأشياء من دون الله تعالى؟

وأكثر ما تؤكد عليه الآيات قضية الكون ومن أبدعه فإن كان الذين يعبدونهم من دون الله قد خلقوه فليعلنوا ذلك إن كانوا واثقين من أنفسهم وليأتوا بالدليل.

ومن ثم يقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۚ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢).

وإذا كانت آلهتهم المزعومة لم تخلق شيئا ولا تستطيع خلق أي شيء

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج.
(٢) الآيتان ٤٠، ٤١ من سورة فاطر.

فكيف تكون جديرة بالعبادة من دون الله وكيف يعتبرونها آلهة.

ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[1].

وكيف يعبد الإنسان مخلوقاً مثله لا حول له ولا قوة؟ إن هذا إن دل على شيء فلا يدل إلا على خبل في العقل وخلل في الفكر.

ومن ثم يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[2].

ومن المؤسف حقاً أن الذين يعبدونهم من دون الله أدون منهم بكثير، فهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون ويتحركون ولكن هذه الآلهة المزعومة لا تسمع ولا تبصر ولا حس فيها ولا نبض ولا حركة ولا حياة، إنها في الغالب أصنام من جماد صنعوها بأيدهم ثم عبدوها من دون الله فيا سبحان الله العظيم؟ أي نوع من البشر هؤلاء؟ إنهم وصمة عار في جبين البشرية جمعاء، حيث أضافوا إلى وصمتهم بالشرك وصمة أخرى وهي أنهم قد نزلوا بمستوى آدميتهم إلى درجة أحط من الجماد بمراحل شتى حين سوغوا لأنفسهم عبادة هذا الجماد.

وتمضي الآيات على هذا النسق في السخرية بهم والاحتقار لهم من هذا التصرف الشائن المهين المتمثل في عباداتهم الأوثان والأصنام وغيرها من كل ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يميت ولا يحيى.

ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا

(١) الآيتان ١٩٠، ١٩١ من سورة الأعراف.
(٢) الآيات ١٩٤-١٩٧ من سورة الأعراف.

نُشُورًا ﴾ [1].

وفي موطن آخر يقول الله تعالى بعد أن أشار إلى هذا الكون الفسيح البديع المتقن وما بث فيه من سائر المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [2].

وهكذا تتوالى الآيات مؤكدة لهم تفاهة ما يعبدون من دون الله ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [3].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [4].

ونختم حديثنا هنا بهذا الحوار الرائع بين إبراهيم عليه السلام وقومه وإقامته الحجة العملية الدامغة لهم حتى جعلتهم مشدوهين مبهوتين فاغري الأفواه لا يكادون يبدون حراكا من شدة المفاجأة وقوة الحجة التي لم يتوقعوها على الإطلاق.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

(١) الآية ٣ من سورة الفرقان.
(٢) الآية ١١ من سورة لقمان.
(٣) الآيتان ١٣، ١٤ من سورة فاطر.
(٤) الآيات ٣٣-٣٧ من سورة الطور.

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وبدلاً من أن يثوبوا إلى رشدهم ويؤبوا إلى بارئهم أو يقوموا الحجة بالحجة إن كان لدى أمثالهم حجة نراهم قد أخذتهم العزة بالإثم وغلبت عليهم شقوتهم، واستبد بهم جهلهم وضلالهم: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (٢).

وهكذا لا فائدة أبداً مع المعاندين المكابرين الذي أعمى الجهل والضلال أبصارهم وبصيرتهم.

* * *

(١) الآيات ٥١-٦٧ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء.

الأساس الثاني:

الحث على الإكثار من العبادة والتقوى

من أجل بناء الشخصية المثالية الفريدة في عالم البشر

العبادة هي الغاية الحقيقية من خلق الإنسان حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (١).

والعبادة في الإسلام تتمثل في فروض ونوافل. فالفروض هي التي طلب الشارع فعلها طلبا جازماً كالصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان والحج مرة في العمر لمن استطاع إليه سبيلا. وحكم العبادات المفروضة الثواب على الفعل والعقاب على الترك.

وأما النوافل فهي التي طلب الشارع فعلها طلبا غير جازم، وتنقسم إلى نوافل مؤكدة وهي التي واظب النبي ﷺ على فعلها، وأما غير المؤكدة فهي التي لم يواظب النبي ﷺ على فعلها. وحكم النوافل بشكل عام الثواب على الفعل وعدم العقاب على الترك.

وهذه النوافل إنما هي تطوع من قبل العبد زيادة على العبادات المفروضة ابتغاء رضاء الله ﷻ وتكفيرا عن بعض الذنوب والمعاصي التي يزل بها قدم العبد.

والعبادة هي الترجمة العملية للإيمان، إذا كانت بخشوع وإخلاص لله تعالى، وهي توقظ الضمير وترفق المشاعر والوجدان وتهذب النفس وتنقيها من شوائب الحسد والغل والشح والحقد وتطبعها بطابع السكينة والرضا. وتسموا بها إلى أفاق عليا من الطهر والنقاء.

والإكثار من العبادة يجعل العبد أكثر قربا من الله تعالى وأكثر رقابة له ﷻ، فيحرص كل الحرص أن تكون كل أقواله وكل أفعاله ماضية على منهج الله، فلا يكذب، ولا يخون، ولا يغدر، ولا يرائي، ولا ينافق، ولا

(١) الآيات ٥٦-٥٨ من سورة الذاريات.

يشهد الزور، ولا يرتشي، ولا يتطلع إلى محارم الغير، ولا يؤذي أحدا بقول أو فعل، ولا يقنط من رحمة الله، ولا يتكبر على أحد.

وإنما يحاول دائماً أن يتأسى برسول الله ﷺ في الصدق والأمانة والصبر والورع والزهد والرحمة والتواضع لخلق الله وحب الخير لكل المؤمنين والتعاون مع الغير على البر والتقوى، وبشكل عام يحاول التحلي بكل الفضائل الإسلامية والتخلي عن جميع الرذائل التي نهى الشرع عنها حتى يغدو أشبه ما يكون بملاك يمشي على الأرض.

وهذا كله لا يحصل للعبد إلا بفضل الإخلاص في العبادة والمداومة عليها.

فالصلاة إذا أديت بخشوع تعين صاحبها على اجتناب المعاصي ومن ثم يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (١).

وذلك لأنها تؤدى في اليوم خمس مرات مقسمة على امتداد اليوم بحيث يكون بين كل صلاة وأخرى فترة زمنية معينة وليست كلها في وقت واحد. ومقتضى هذا أن المؤمن المواظب على الصلاة في أوقاتها لابد وأن يكون مهيأ نفسياً وروحياً للصلاة قبل حلول كل وقت بفترة تطول أو تقصر حسب قوة إيمان الشخص، فلا يفكر في معصية حينذاك ويكون كذلك أيضاً أثناء أدائها، ثم يستمر أثرها في نفسه بعد أدائها بفترة أيضاً، ويتكرر هذا الأمر في أوقات الصلاة. ومعنى ذلك أن الشخص يكون في أحسن حالاته الإيمانية خلال هذه الفترات المتكررة في اليوم الواحد خمس مرات، فإذا هم بمعصية وأخذ يشغل نفسه بالتفكير فيها ومحاولة تنفيذها، لا يلبث الوقت الجديد للصلاة أن يدخل عليه فيتهيأ لها، وحينئذ لابد وأن يتلاشى هذا الخاطر الشيطاني، فإن عاد الخاطر مرة أخرى بعد الصلاة بفترة فقبل أن تستفحل نية الشر في نفسه وقبل أن تخرج الجريمة التي يعزم على ارتكابها إلى حيز التنفيذ يفاجأ بوقت الصلاة الأخرى قد دخل عليه فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويزيح هذا الخاطر جانباً ويهب مسرعاً إلى الصلاة.

(١) الآية ٤ من سورة العنكبوت.

ومن ثم يتضح لنا مدى الحكمة الإلهية في تقسيم أوقات الصلاة على امتداد اليوم و عدم جعلها في وقت واحد.

وإذا تبين لنا كيف أن الصلاة التي تتسم بالخشوع لله تعالى تنهي عن الفحشاء والمنكر كما يصرح القرآن الكريم فكذلك نجد أن الزكاة لها أبلغ الآثار في تطهير النفس من آفتي الشح والبخل وتطهير المجتمع من الحسد والكراهية والحقد. وهذه الأمور تعتبر من أخطر الآفات المدمرة لأي مجتمع إذا لم تعالج في مهدها قبل أن يستفحل شرها، ومن ثم نجد التوجيه الإلهي المحكم والمتمثل في قوله تعالى: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾(١).

وأي تطهير وأي تزكية للنفس أسمى وأعظم من نزعة الأنانية وغرس بذور الرحمة والتعاطف والتعاون فيها بدلاً من هذه النزعة المهلكة.

وأما الصوم، فإنه يربي النفوس على الجلد والصبر، وتحمل كثير من مشقات الحياة مادام الشخص قد جاهد نفسه على مقاومة الجوع والعطش وكثير من الشهوات يوما كاملاً وأياما متتالية، كما يبعث على التقوى والرحمة والمراقبة الدائمة لله تعالى ويحرر النفس من آفتي الرياء والنفاق حيث لا مجال لهاتين الآفتين في الصوم، ولهذا فقد جاء في الحديث القدسي عن رب العزة يقول فيه:«**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا اجزي به**». ويقول الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (٢).

وهل ثمة أعظم ولا أجل من التقوى إنها تتمثل في الخشية من الله ﷻ ومراقبته تعالى في السر والعلن والمضي على مناهجه القويم الذي خطاه لعباده الصالحين.

وأما الحج فإنه مؤتمر عام للمسلمين من كل جنس، ومن كل لون يلتقون جميعاً في رحاب بيته الكريم، في ساحة الغفران وساحة الرحمن،

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة.
(٢) الآية ١٨٣من سورة البقرة.

في موئل النور ومهبط الوحي يلتقون جميعا في هذا الجو الإيماني الروحاني حيث الصفاء والنقاء وحيث التجرد الكامل من كل المظاهر الدنيوية الزائفة،وحيث المساواة الحقيقية بين الناس جميعاً لا فرق بين أبيض وأسود ولا بين أحمر وأصفر ولا بين أمير وخفير. الكل أتوا تائبين خاشعين منيبين ضارعين إلى الله تعالى أن يشملهم بمغفرته ورحمته ورضوانه وأن يتجاوز عن سيئاتهم وأخطائهم ويغتسلون جميعاً في بحار الندم التي تذرفها مآقيهم، ويتجلى عليهم الحق ﷻ بواسع فضله وبالغ كرمه وبعد أن يؤدوا مشاعر الحج ومناسكه يؤوبون إلى مواطنهم، وقد تابوا إلى الله توبة نصوحا وعقدوا العهد مع الله ﷻ أن يتجنبوا معاصيه، ويلتزموا طاعاته ويتأدبوا بكل آدابه التي سنها لهم وتظل آثار هذه التوبة عالقة في أذهان المخلصين منهم طوال حياتهم، فلا يحيدوا عن جادة الصواب ولا يكونوا إلا حيث يرضي الله عنهم.

وهكذا نرى كل العبادات تتعاون وتتضافر في بناء الشخصية المثالية للمسلم والأخذ بيده إلى طريق الهداية والنور، حتى تجعل منه في النهاية مثلا فريدا بين الناس جميعاً في السلوك والعمل والطاعة والأخلاق حتى يباهي به الله ملائكته في السماء.

وأما التقوى فهي الخشية من الله تعالى، وشدة الخوف منه ومراقبته في السر والعلن والإخلاص في القول والعمل، والبعد عن كل شوائب الرياء والنفاق وعليها يتوقف قبول العبادة.

ومن ثم فما أكثر الآيات القرآنية والآحاديث النبوية التي تحث على الورع والتقوى، وتشير إلى الصفات الحقيقية للمؤمنين الصادقين، وتبين مدى محبته تعالى لهم ومدى ما عده لهم من جزيل العطاء في الآخرة.

يقول الله تبارك تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (١).

(١) الآيات ١-٥ من سورة البقرة.

ويقول: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ

(١) الآيات ١٣٣- ١٣٦ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران.
(٣) الآيات ١٩٠-١٩٤ من سورة آل عمران.
(٤) الآيات ١-٤ من سورة الأنفال.

ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٣).

يقول الله ﷻ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا

(١) الآيات ١١١-١١٢ من سورة التوبة.
(٢) الآيات ١٥١-١٥٣ من سورة الأنعام.
(٣) الآيتان ١، ٢ من سورة الحج.
(٤) الآيات ١-١١ من سورة المؤمنون.

عَظِيمًا ﴾[1].

ويقول: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[2].

ويقول: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[3].

ويقول: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[4].

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.
(٢) الآيات ٦٣-٧٦ من سورة الفرقان.
(٣) الآيتان ٢٣، ٢٤ من سورة الأحزاب..
(٤) الآيات ٦٢-٦٤ من سورة يونس.

وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (١)..

ويقول: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (٥).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا

(١) الآيات ١٠١-١٠٤ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.
(٣) الآيات ٧٣-٧٥ من سورة الزمر.
(٤) الآيات ٣٠-٣٦ من سورة فصلت.
(٥) الآيتان ٧٧، ٧٨ من سورة الحج.

مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ

(١) الآيتان ٣٣، ٣٤ من سورة لقمان.
(٢) الآيات ٧٠-٧٣ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات.
(٤) الآية ١٥ من سورة الحجرات
(٥) الآية ٢٨ من سورة الحديد.

ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

تلك هي بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالحث على الإكثار من العبادة والتقوى. وثمة نظائر لها كثيرة في كتاب الله ﷻ.

وهذه الآيات ونظائرها تظل دائماً وأبدا لآلئ مشرقة في قلب المؤمن فتضفي على كيانه كله نور الهداية الربانية فيمضي على طريق الخير غير مبال بنوازع الشر ولا معير لها اهتماماً.

وهناك أيضا بجانب هذه الآيات مئات الأحاديث للرسول ﷺ تمضي على نفس النهج، والمؤمنون جميعاً مطالبون بإتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته المتعلقة بالتشريع كاتباعهم للقرآن تماما لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٥).

وكما أن لآيات القرآن الكريم في قلب المؤمن بهجة وروعة وجمالاً ونوراً فكذلك لأحاديث الرسول ﷺ في قلب المؤمن أيضاً بهجة وروعة وجمالاً ونوراً لأن الكل من عند الله تعالى.

ومن أحاديث الرسول ﷺ في هذا الشأن ما يأتي:

١- عن أبي عبدالله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت

(١) الآيات ١٨-٢٤ من سورة الحشر.
(٢) الآيات ١٠-١٣ من سورة الصف.
(٣) الآية ٧ من سورة الحشر.
(٤) الآيتان ٣، ٤ من سورة النجم.
(٥) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» رواه البخاري ومسلم.

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: " إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ (١)، وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ (٢)، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب له " رواه مسلم.

٣- وعن أبي هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» رواه البخاري ومسلم.

٤- وعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» رواه الترمذي وقال حديث حسن.

٥- عن عبد الله ابن عباس ﷺ قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

---

(١) الآية ٥١ من سورة المؤمنون.
(٢) الآية ١٧٢ من سورة البقرة.

وفي رواية غير الترمذي:«**احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وأعلم إن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، وأعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**».

٦- عن النواس بن سمعان ﷺ عن النبي ﷺ قال:«**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**» رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد ﷺ قال أتيت رسول الله ﷺ فقال:«**جئت تسأل عن البر؟**» قلت: نعم، قال:«**استفت قلبك ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك**» ورد هذا الحديث في مسند الإمام أحمد ومسند الدارمي بإسناد حسن.

٧- عن أبي نجيح العرباض بن سارية ﷺ، قال: " وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال:«**أوصيكم بتقوى الله ﷻ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**» رواه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

٨- عن معاذ بن جبل ﷺ، قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويبعدني عن النار؟ قال:«**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، ثم قال:«**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل**»، ثم تلا ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾، ثم قال:«**ألا أخبركم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال:«**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**»، ثم قال:«**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» فقلت بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال:«**كف عليك هذا**»، قلت يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال:«**ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على**

مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

٩- عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:«إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» رواه الدارقطني.

١٠- عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: " جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال:«ازهد في الدنيا يحبك الله وأزهد ما في أيدي الناس، يحبك الناس».

١١- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر عن معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» رواه مسلم.

١٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليه مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله الذي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» رواه البخاري.

١٣- عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ قال:«إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» رواه البخاري ومسلم.

١٤- وعن ابن عباس أيضا رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

قال:«إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» رواه ابن ماجه والبيهقي.

١٥- عن أبي هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال:«يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قال مرارا، فقال رسول الله ﷺ:«لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم». ثم قال:«ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» رواه مسلم، وكان السائل هو الأقرع بن حابس.

١٦- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» رواه الترمذي.

١٧- عن أبي ذر الغفاري ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال:«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي- وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عباد لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم.

١٨- عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:«لا ضرر ولا ضرار».

١٩- عن أبن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال:«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

٢٠- عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»**.

٢١- عن أبي ذر ﷺ قال: أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: **«أو ليس الله جعل لكم ما تصدقون؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»**.

فقالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: **«أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»** رواه مسلم.

تلك هي بعض أحاديث رسول الله ﷺ في مجال البحث على الإكثار من العبادة والتقوى، وبيان مدى ما أعده الله لعباده المتقين من جزيل الثواب في الآخرة.

ولا شك أن هذه الأحاديث ونظائرها - وهي كثيرة تربوا على الآلاف - لها أبلغ الآثار في نفوس المؤمنين الصادقين، فتحفزهم على التفاني في الطاعة، وتنفرهم من المعاصي، وتجعلهم سباقين للخيرات، وتقوى لديهم حاسة المراقبة لله تعالى في السر والعلن، فيخلصون له غاية الإخلاص، ومن ثم فلا يعرف النفاق ولا الرياء إلى قلوبهم سبيلا حيث تغمرها الطهارة كل الطهارة والنقاء كل النقاء والخشية كل الخشية من الله تعالى.

وبفضل هذا التوجيه الإلهي والمنهج الرباني والتربية المحمدية كان المسلمون الأوائل مثلا عليا، ونماذج فريدةً في عالم البشر، لأنهم ترسموا كل تعاليم الله وأحكامه، ونفذوا كل منهاجه بحب عارم وشغف بالغ، فيا ترى هل لنا أن نتخذ من سلفنا الصالح عظة وعبرة فنسير على نفس الدرب ونطبق المنهج عملياً لا مجرد دراسة نظرية؟ نرجو ذلك، ونسأل الله التوفيق والسداد، إنه سميع مجيب.

* * *

الأساس الثالث:

تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم

المتتبع لأحكام الشريعة الإسلامية يرى أنها تمضي في إطار تحقيق مصالح الناس، ورفع الضرر والمفاسد عنهم، فليس ثمة حكم من أحكامها، إلا هو محقق لمصلحة أو دارئ لمفسدة، وغالباً ما يكون متضمناً للأمرين معاً.

١- فمثلاً العبادات التي هي صلة مباشرة بين العبد وربه، والتي تتمثل في تأدية فروض الولاء والطاعة من المخلوق لخالقه، فإنها في الوقت ذاته تحقق الكثير من المنافع للناس، حيث إنها تهذب النفس، وتجعلها نورانية شفافة وتنقي الروح، وتوقظ الضمير، ويجعل العبد في حالة مراقبة دائمة لله تعالى، فيراعيه جل وعلا في كل أفعاله وتصرفاته، فلا يصدر منه ضرر ولا أذى لمخلوق.

كما أنها تجعل صاحبها يشعر في قرارة نفسه بالاطمئنان والسكينة والرضا حيث يقول الله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (١)، فلا توتر ولا اضطراب ولا أي شيء من هذه المنغصات التي يتكدر على الناس صفو حياتهم، وتجعلهم يعانون والكثير من الأزمات النفسية والأمراض العصبية.

فالمؤمن الذي يكون على صلة وثيقة بالله تعالى هو دائما أقوى من الأحداث والمحن، فلا يأبه مطلقاً بأي كارثة، تحل به سواء أكانت بصحته، أم ماله، أم ولده حيث يتقبل ما يصيبه من نوائب الدهر، بجلد وثبات ويقين ورضا محتسباً ذلك عند الله تعالى.

ومما يؤكد لنا ثبات المؤمن تجاه الأحداث والمحن، وعدم خضوعه لها ومدى ما ينعم فيه من خير بسبب ذلك هذا الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول ﷺ: **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير - وليس ذلك لأحد إلا**

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

المؤمن – إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم. فهو حين تحل به نعمة لا يستبد ولا يطغى ولا يتعالى على خلق الله، ولا ينسب الفضل في النعمة إلى نفسه وما يتمتع به من ذكاء وعلم وخبرة وغير ذلك، وإنما ينسبه إلى الله تعالى فهو الذي منحه العلم والذكاء وغيرهما وهو الذي يسر له كل الأسباب في الحصول على النعمة، ومن ثم يقابل المؤمن هذه النعمة بالشكر والخضوع لله تعالى، فيجازيه الله على شكره بمضاعفة النعمة في الدنيا وبحسن الجزاء في الآخرة والفوز برضاء الله ورضوانه حيث يقول الله ﷻ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (١).

وحين تحل به محنة لا يتململ ولا يسخط ولا يقنط من رحمة الله تعالى، وإنما يقابل ذلك بتسليم الأمر لله تعالى مع الصبر الجميل فيجازيه الله خير الجزاء ويكفي هنا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢)، ومن ثم فالمؤمن يتقلب دائماً وأبداً بين نعمتي الشكر والصبر، ولذا فحياته كلها خير دائم وصدق رسول الله ﷺ حين عبر عن هذا المعنى أصدق وأبلغ تعبير في حديثه السالف.

والمؤمن حين يخلص العبودية لله تعالى فإنه يشعر بسعادة غامرة لا حد لها حيث يكون في الوقت ذاته قد تحرر تحرراً كاملاً من كل قيود المادة والمظهريات الفارغة في الحياة فلا عبودية عنده لمنصب ولا لجاه ولا لمال ولا لأي شيء من مغريات الدنيا الفانية بكل ما فيها وكل ما فيها، وكذا لا عبودية عنده لأي شخص مهما كان جاهه أو منصبه في الحياة حيث يشعر في قرارة نفسه أن العظمة والكبرياء لله وحده، فلا عظمة ولا كبرياء لأي أحد آخر سواه.

كما يشعر المؤمن في قرارة نفسه أن الله وحده دون كل من سواه هو المعز المذل، الخافض الرافع القابض الباسط الخالق الرازق النافع الضار المحيي المميت وهو على كل شيء قدير.

---

(١) الآية ٧ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ١٠ من سورة الزمر.

وكلما ازداد خضوع الإنسان لبارئه ومولاه كلما شعر بسمو ورفعة إزاء كل ما عداه وكل من عداه.

وإذا كان هذا هو شأن العبادة وما تحققه من منافع جمة للإنسان فإن باقي الجوانب الأخرى من أحكام الشريعة تمضي على نفس النسق أيضاً في تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم، سواء أكانت تتعلق بالمعاملات أم العقوبات أم الأحكام المتعلقة بتنظيم الأسرة أم غيرها.

٢- فإذا نظرنا إلى المعاملات، نجد أن الشريعة قد جعلت الأصل فيها، هو الحل بينما جعلت المحرم منها على سبيل الاستثناء، فالمباح منها هو النافع للإنسان، وأما المحرم منها فهو الضار به.

ولا يستطيع أحد أن ينكر مدى أهمية إباحة البيع والقرض والرهن والهبة والإجارة والإعارة والكفالة والشركات، وغير ذلك من سائر العقود والتصرفات المالية التي أباحتها الشريعة.

فعن طريق هذه العقود والتصرفات المالية تمضي حركة الحياة الاقتصادية إلى غايتها في تحقيق مصالح الناس.

وإذا كان أي عاقل لا يستطيع أن ينكر مدى ما تحققه كل المعاملات التي أباحتها الشريعة من منافع للناس، فإنه كذلك لا يستطيع أي عاقل أيضاً، أن ينكر أن ما حرمته الشريعة في مجال المعاملات، قد دفع عنهم الكثير من المضار.

وإلا فهل يمكن لعاقل أن يقر الغش في المعاملة والذي قال الرسول ﷺ بشأنه: «**من غشنا فليس منا**».

وهل يمكن لعاقل أن يقر التطفيف وفي الكيل والميزان والذي قال الله ﷻ بشأنه ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (١).

وهل يمكن لعاقل متجرد عن الهوى أن يقر الاحتكار الذي حرمته الشريعة لما يترتب عليه من تضييق على الناس في حياتهم.

(١) الآيات ١-٣ من سورة المطففين.

وهل يمكن لعاقل متجرد عن الهوى أن يقر الربا وما يسببه من خراب ودمار للاقتصاد بشكل عام، وما يمثله من أبشع صور الاستغلال من الإنسان لأخيه الإنسان.

ويكفي أن أعقد مشكلة يواجهها العالم اليوم، وتعاني الدول الفقيرة منها أشد المعاناة هي مشكلة الربا، وأن هذه الدول غدت اليوم تقدم معظم دخلها القومي الذي هو حصيلة جهد شعوبها، وعرقهم وشقائهم تقدمه قرباناً للدول الدائنة مقابل فائدة القروض الربوية.

ومع ذلك فمازلنا للأسف البالغ نسمع من الدخلاء على الشريعة - وهم اليوم كثير - وممن اتخذوا العلم مطية، يتوصلون بها إلى أغراضهم الدنيوية على حساب دينهم، فهؤلاء وهؤلاء، مردوا على تلفيق تبريرات سخيفة للتعامل بالربا، ويسمونه بمسميات أخرى غير اسم الربا، وكأن المحرم هو الاسم دون المسمى، ويفرقون بين الفائدة عن قرض استهلاكي، والفائدة الناشئة عن قرض إنتاجي، ويقولون: أن شبهة الاستغلال غير قائمة في التعامل مع المصارف المالية، لأن إمكانية الفرد الذي يقرضها أقل من إمكانيات هذه المصارف بمراحل شتى، والضعيف مادياً لا يستغل من هو أقوى منه، ومن ثم فالحكمة التي من أجلها حرم الربا - وهي الاستغلال - غير قائمة في التعامل مع المصارف المالية ولذا يكون التعامل معها بالفائدة غير محرم شرعاً.

ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الفرد حينما يودع أمواله في هذه المصارف المالية بفائدة معينة فإنه وإن كان لا يستغلها إلا أنه يعينها على الاستغلال بالنسبة لمن يقترضون منها.

كما إن الربا هو الربا سواء كان يتعلق بقرض إنتاجي، أو قرض استهلاكي، لا فرق بين هذا، وذاك على الإطلاق، فما أكثر القروض التي حصل عليها أربابها بغرض الإنتاج سواء كان ذلك عن طريق الدول أم عن طريق الأفراد، ثم عجزت هذه الدول، وهؤلاء الأفراد عن الوفاء بأداء الفوائد عن هذه القروض بل وعجزت عن أداء أصل القرض أيضاً، وما أكثر الشركات التي أعلنت عن إفلاسها، بسبب فوائد القروض التي أثقلت كاهلها رغم أنها قد وظفت هذه القروض في مشاريع إنتاجية.

وكأن هؤلاء الذين مردوا على تبرير الربا وإباحته للأمة لم يقرع أسماعهم قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١).

هذا النص القرآني الكريم واضح كل الوضوح صريح كل الصراحة صارم كل الصرامة، وقد بلغ أسلوب التهديد فيه من الشدة والوعيد والعنف ما لم يبلغه في النهي عن ارتكاب أي محظور آخر يكفي أن يصل التهديد والوعيد فيه إلى حد الإنذار بحرب من الله ورسوله، ولا يمكن أن يكون بعد ذلك ثمة إنذار.

ويقطع القرآن الكريم على عصابة المحللين للحرام في الأمة الذين زين لهم الشيطان أعمالهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، يقطع القرآن الكريم عليهم هنا كل طريق للف والدوران، بقصد التحايل على النصوص خداعاً ومكرا من عند أنفسهم، فيشير إلى أن كل ما زاد على رأس المال فهو ربا حيث يقول ﷻ: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾، ومعنى ذلك أن كل ما زاد على رأس المال مهما كان قليلا ينطبق عليه حكم الربا.

ومع كل هذا الوضوح، وذلك الجلاء في بيان حقيقة الربا وأنه يتمثل في أي زيادة على رأس المال، مهما كانت طفيفة، إلا أن عصابة التحليل أبت إلا أن تلقي على هذا النص الواضح، ظلالا كثيفة من التفسيرات والتأويلات التي تتنافى مع منطقه كل التنافي والتي تخرجه عن صراحته، ووضوحه بقصد التمويه والخداع والتضليل للأمة، ونسي هؤلاء أو تناسوا أنهم ليسوا بصدد قوانين من وضع البشر، وإنما بصدد إحكام الله تعاليمه الذي يعلم السر والنجوى، ويعلم دخائل النفوس، وما يمكن أن تضمره من خبث ومكر وأنه سيؤاخذهم بسوء مكرهم حيث يقول ﷻ: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (٢).

(١) الآيات ٢٧٨-٢٧٩ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

٣- وإذا نظرنا إلى تشريع العقوبات في الإسلام، فإننا نجد الحكمة من ذلك هي تطهير المجتمع من الرذيلة، ومن كل العابثين بأمنه وأمانه والقضاء على كل بواعث الجريمة والتفكير فيها. ولا يخفى على أي أحد مدى ما يحققه مثل هذا المقصد من مصالح للمجتمع الإسلامي، لا تكاد تحصر فالأمان هو العنصر الأساسي الذي لابد من توافره لأي مجتمع كي يستطيع أن يؤدي رسالته على الوجه الأكمل في الحياة.

٤- وحين نمعن النظر في الأحكام المتعلقة بتنظيم العلاقات في الأسرة نجد ما يدهشنا، نجد الشريعة قد قررت حقوقا للزوج على زوجته، وحقوقا للزوجة على زوجها، وألزمت كل واحد منهما أن يلتزم بأداء ما عليه من واجبات تجاه الطرف الآخر، وأن يراعى الله ﷻ في حقوق شريك حياته لتمضي الحياة بينهما على نسق قويم من هدي الشريعة الغراء، وحتى لا يعكر صفو حياتهما أي شائبة من تعسف أو جور، وإنما تكون المودة والرحمة دستور حياتهما.

وقد فعلت الشريعة ذلك باعتبار أن الأسرة هي اللبنة الأساسية التي يتكون من مجموعها صرح المجتمع الشامخ، فإذا كانت هذه اللبنة قوية كان المجتمع كله كذلك، وإذا كانت هشة غير متماسكة، غدا المجتمع هيكلاً خاوي الوفاض يتساقط بناؤه لأدنى الهزات التي تفاجئه بها أحداث الزمان.

ولم يقف التشريع الإسلامي - فيما يتعلق بالأسرة - عند حد تقرير حقوق للرجل على المرأة وتقرير حقوق للمرآة على الرجل وإلزام كل من الطرفين بالوفاء بما عليه من حقوق قبل الطرف الآخر وإنما نراه يقرر حقوقاً للأولاد على الآباء وحقوقاً للآباء على الأولاد، وحقوقا لكل الأقارب تجاه بعضهم البعض، وذلك كله بهدف تقوية كل الأواصر في المجتمع الإسلامي وشيوع معنى الرحمة فيه.

* * *

الأساس الرابع:

التيسير وعدم الحرج

يعتبر التيسير ورفع الحرج عن الناس من أهم أهداف التشريع الإسلامي، ومما يؤكد هذا المعنى ورود كثير من آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ في هذا الشأن فمن القرآن الكريم قول الله ﷻ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٦).

وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٧).

وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (٨).

ومن السنة النبوية قول النبي ﷺ: **«يسروا ولا تعسروا»** (٩).

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج.
(٣) الآية ٢٨ من سورة النساء.
(٤) الآية ٦ من سورة المائدة.
(٥) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.
(٦) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.
(٧) الآية ١٦ من سورة التغابن
(٨) الآية ٦١ من سورة النور.
(٩) انظر: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى شلبي ص ٨٦ نقلا عن كتاب حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٢٨.

وقوله ﷺ: «**بعثت بالملة والسمحة الحنيفية البيضاء**».

وقوله: «**لولا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**».

هذا ومظاهر التيسير على الأمة والتخفيف عنها كثيرة في الشريعة.

فمن ذلك نهيه ﷺ عن الوصال في الصوم - أي مواصلة الليل بالنهار في الصوم - فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: نهاهم ﷺ عن الوصال رحمه بهم - فقالوا إنك تواصل، فقال: «**إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**» متفق عليه. ومعناه يمنحني قوة روحية تجعلني أتحمل المواصلة والصبر على شدة الجوع والعطش.

ومن ذلك نهي الرسول ﷺ عن التبتل، وعن إلزام النفس بالمشقات الشديدة في العبادة إلى درجة لا تتحملها النفس غالباً، فقد روي أن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ قد ذهبوا إلى بيوت أزواجه ﷺ، يسألون عن عبادته ليتأسوا به فيها، فلما أخبرو كأنهم تقالوها.

فقالوا: إن رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أنا أقوم الليل أبدا، وقال الثاني: وأنا أصوم ولا أفطر، وقال الثالث: أنا لا أتزوج النساء، فلم علم النبي ﷺ بأمرهم أرسل إليهم وقال لهم: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا**»، قالوا نعم، فقال: «**أما والله إني لاتقاكم لله وأخشاكم منه ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن ترك سنتي فليس مني**». ويقول ﷺ: «**إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، فإن المُنْبَتَّ لا أرضا قطع ولا ظهر أبقى**».

ومن باب التيسير على الأمة أيضاً خوف لحوق المشقة بهم أنه ﷺ كان يدع بعض العبادات أحياناً، رغم حبه الشديد وتعلقه الشديد بها خوفاً من أن يتابعه الصحابة فيها فتفرض على الأمة، ولا يستطيعون المواظبة عليها، ومن ثم تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل خشية أن يعمل الناس فيفرض عليهم " متفق عليه.

ومن هذا المنطلق أيضاً نرى الرسول ﷺ ينهى عن الإطالة في الصلاة حتى لا يشق على المأمومين، فقد روي عن ابن مسعود ﷺ قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب منه يومئذ فقال:«**أيها الناس أن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة**» متفق عليه.

وكان النبي ﷺ يكره السؤال عن الأمور التي لم ينزل بشأنها وحي، حتى لا يتسبب السؤال في نزول الوحي بتكاليف تثقل كاهل الأمة، ولذا يقول الرسول ﷺ:«**أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته**»، ويقول: " إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها ".

وقد روي أن الأقرع بن حابس سأل النبي ﷺ عن الحج: أفي كل عام يا رسول الله قال:«**لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**». وفي رواية أخرى انه قال أيضا- إضافة إلى قوله السابق -:«**فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**».

وثبت أنه ﷺ ما خير بين أمرين إلا أختار أيسرهما. ما لم يكن أثماً.

ولما كان مبدأ التخفيف والتيسير على الناس هو الأساس في التشريع الإسلامي، فإننا نرى لمسات هذا المبدأ أو بصماته واضحة في تعاليم الشريعة وأحكامها، ومما يؤكد ذلك أن التكاليف في الشريعة قليلة بشكل عام سواء كان هذا في الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج، وكذلك نجد في مجال المطعومات أن الأشياء التي حرمت الشريعة تناولها قد وردت فيها على سبيل الحصر بينما كان ما عداها من سائر الأشياء مباحاً، ولذا يقول الله ﷻ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (١).

ويقول الله ﷻ: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: (١).

ولما بين الله الأشياء التي حرمها من المطعومات وذكر أن ما عداها حلالاً نرى انه أباح لنا تناول هذه الأشياء المحرمة في حالة الضرورة. إذ يقول ﷻ: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

ويقول تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ ﴾ (٤).

وكذلك نرى أن الله قد ذكر المحرمات من النساء على سبيل الحصر أيضاً ويبين أن ما عدا المذكورات حلال وذلك حيث يقول ﷻ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٥).

وبالنسبة للعقود نرى أن الأصل فيها هو الحل أيضاً إلا ما حرمته الشريعة كالربا والغش والغرر والتطفيف في الكيل والميزان وسائر

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٣ من سورة المائدة.
(٣) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام.
(٤) الآية ١١٩ من سورة الأنعام.
(٥) الآيتان ٢٣، ٢٤ من سورة النساء.

وجوه أكل أموال الناس بالباطل. ولم يتعرض القرآن الكريم لذكر تفصيلات العقود وإنما اكتفى بإعطاء توجيهات ونصائح عامة في هذا الشأن تلتقي مع قيم الإسلام وأخلاقه وترك تفاصيل المعاملات للناس يتصرفون فيها بما يتلاءم مع زمانهم ومكانهم بحيث تمضي في إطار المبادئ العامة لهذه الشريعة السمحاء.

كما نلاحظ إتيان الشريعة بالكثير من الرخص بدلاً من العزائم، وذلك بغرض التخفيف عن الأمة أيضاً، كتشريع التيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله كالجمع والقصر في السفر، وكإباحة الفطر في شهر رمضان للمريض والمسافر مع الإعادة إلى غير ذلك من سائر الأمور التي عرض لها الفقهاء في أبواب الفقه المختلفة [1]، وقد بين الرسول ﷺ أنه لا ينبغي أن يتحرج من الأخذ بالرخصة بدلا من العزيمة وذلك حيث يقول ﷺ: **«إن الله يحب أن تؤدي رخصه كما يحب أن تؤتي عزائمه»**.

* * *

(١) انظر: في كل ما تقدم: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى شلبي ص ٨٥ وما بعدها، والمدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور عبدالكريم زيدان ص ١١٢ وما بعدها، ومدخل الفقه الإسلامي للدكتور حامد شمروخ ص ٩٣ وما بعدها، والمدخل لدراسة الفقه الإسلامي للدكتور محمد يوسف ص ١٢٧ وما بعدها.

obeikandl.com

الأساس الخامس:

تحقيق مبدأ المساواة بين الناس جميعا

إن من أجل تعاليم الشريعة الإسلامية ومن أسمى مبادئها مبدأ المساواة بين الناس جميعا في الحقوق والواجبات، دون أي تمايز بينهم بسبب الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين، فالمواطنون من غير المسلمين الذين يقيمون في أي دولة إسلامية لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين، ومن ثم يقول الرسول ﷺ بشأنهم: «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**». بل يوصي الإسلام ببرهم والإحسان إليهم حيث يقول الله ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [1] وينهي الرسول ﷺ عن إيذائهم ما داموا ملتزمين بعهد الذمة فيقول ﷺ: «**من أذى ذمياً فقد آذاني**» ويقول: «**من أذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة**»، ولا ننسى قصة ذلك اليهودي الذي كان يتكفف الناس - أي يطلب منهم صدقة وإحسانا - فرآه عمر بن الخطاب فسأله ما الذي ألجأك إلى هذا؟ فقال: الجزية والحاجة والسن، فأعطاه، عمر من ماله ثم أرسله إلى خازن بيت المال وكتب إليه قائلاً: انظر هذا وأضرا به فاجعل له في بيت المال نصيبا دائماً - أي راتباً شهرياً أو ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ** ﴾ سنوياً حسب عادتهم في ذلك - فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخره عند الهرم.

وإذا كان الإسلام يحرص كل الحرص على تحقيق مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، فإنه أكثر حرصًا على تأكيد هذا المبدأ وتحقيقه بين المسلمين أنفسهم، وهذا أمر طبيعي لأنهم رواد الفضيلة في الأرض، أو هذا هو الشأن فيهم، وذاك هو المطلوب منهم فكيف يكونون رواداً لغيرهم إذا تظالموا فيما بينهم ويهدرون مبدأ المساواة عندهم.

فالتفاضل في دنيا المسلمين لا يكون إلا بالتقوى والعمل الصالح،

(١) الآية ٨ من سورة الممتحنة.

ومن ثم يقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

ويقول جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[2].

ويقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴾[3] فقد استنبط الإمام البخاري من هذه الآية مبدأ المساواة بين الناس جميعاً من حيث أن نشأتهم واحدة[4].

وروي عن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الناس رجلان مؤمن تقي كريم على الله ﷻ، وفاجر شقي هين على الله ﷻ**».

وقال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم**» أي تتساوى في القصاص والديات دونما فرق بين شريف ووضيع ولا بين غني وفقير، وإذا تساووا في هذين الأمرين كان التساوي فيما دونما أولى.

وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب**».

وقال ﷺ: «**ليس منا من دعا إلى عصبية**».

وقال: «**يا معشر قريش أن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكثرها بآبائها**» والنخوة هي الكبر والافتخار[5].

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص قائلا: إن الله ليس بينه وبين أحد نسبا إلا بطاعته والناس شريفهم وضيعهم في ذات الله سواء "[6].

ولما بلغ عمر بن الخطاب أن ابن العاص والي مصر يتكئ في مجلسه كتب إليه يقول: بلغني انك تتكئ في مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات.
(٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ٥٤ من سورة الفرقان.
(٤) فتح الباري ١٢١/٩.
(٥) المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى شلبي.
(٦) المرجع السابق.

الناس "[1].

وإنه لمن مفاخر الإسلام أن جاء بالقضاء على كل ما يمت إلى التفرقة بين الناس بسبب الحسب أو النسب أو المال أو أي مظهر من مظاهر الدنيا، وإن الواقع العملي في عهد الرسول ﷺ ليؤكد هذا المعنى كل التأكيد فأكثر الموالي الذين احتلوا مكان الصدارة بين كبار الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ومازالوا وسوف يظلون دائما وأبدا ملء سمع الزمان وبصره، ويشار إليهم بالبنان بكل إعجاب وتقدير بل بكل تعظيم وإكبار.

ومن أمثال هؤلاء: بلال بن رباح، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وعمار بن ياسر، وعبدالله بن مسعود،وغيرهم كثير وكثير.

ولو كان الإسلام يعير مثل هذه المظاهر الكاذبة اهتماما، لما احتل أمثال هؤلاء مكان الصدارة في أول دولة للإسلام، ولما كان لهم شأن يذكر في مسار الدعوة الإسلامية.

ويكفينا في الدلالة على أن الإسلام قد قضى قضاء مبرماً على كل ما يمت إلى التفرقة العنصرية بصلة، أن أحد الصحابة قال لبلال بن رباح أثناء نزاع بينهما: يا بن السوداء، فقال الرسول ﷺ لهذا الصحابي لما بلغه ذلك فقال:«**أفقلت له يا بن السوداء؟**» فاعترف له الصحابي بذلك. فقال له الرسول ﷺ:«**إنك امرؤ فيك جاهلية، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى**».

وحين تقع هذه المقالة -«**إنك امرؤ فيك جاهلية**» على مسامع ذلك الصحابي الجليل كان يشعر وكأن الأرض تهتز تحت قدميه، بل وكأن صاعقة من السماء توشك أن تقع على رأسه وأن غضب الله يوشك أن يحيق به فيرتمي من فوره تحت أقدام هذا الذي كان بالأمس يستحقره، ويقسم ألا يرفع خده عن الأرض إلا أن يطأه بلال بقدمه.

فتصور إلى أي حد كان حزم الرسول ﷺ - وهو الرؤوف بالمؤمنين الرحيم بهم كما وصفه ربه في كتابه العزيز - حين رأى بقية من آثار

(١) المرجع السابق.

الجاهلية عالقة بنفوس بعض أصحابه، فآثر على أن يجتثها من جذورها بتلك المقالة التي سوف يبقى رنينها في ضمير الزمان يهز وجدانه، ويحث المسلمين أن يطرحوا وراءهم ظهريا كل تفاخر بالأنساب لأن هذا ليس من خلق الإسلام ولا المسلمين فالناس كلهم لأدم وأدم من تراب ولا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى.

وقد ثبت أن الكثيرات من القريشيات تزوجين بالعديد من الموالي في عهد الرسول ﷺ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المساواة في الإسلام ليست مجرد شعار نظري يحلق في عالم الخيال ويربأ بنفسه أن ينزل من عليائه إلى دنيا الواقع وإنما كانت حقيقة ملموسة عايشت الواقع وعانقته في العصور الزاهرة للإسلام، وظلت وسوف تظل دائما وأبدا نصب أعين كل المؤمنين الملتزمين بأحكام الله وتعاليمه.

وحين ننظر إلى الواقع المزري للعالم اليوم نرى أنه لم تستطع كثير من الدول تحقيق مبدأ المساواة، وتطبيقه بصورة سليمة، فمثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية، لا تزال الفروق قائمة بين المواطنين، على أساس اللون والجنس، فصاحب البشرة البيضاء، أسمى منزلة وأعلى قدرا من صاحب البشرة السوداء ولا مساواة بين الاثنين أمام القانون، وإن كان الاثنان يحملان الجنسية الأمريكية والقانون يحمي هذا التمايز ويقره.

بل إن بعض الولايات المتحدة الأمريكية، تنص دساتيرها على أحكام غريبة لا يستسغيها الضمير الإنساني، ولا يقرها عقل سليم، فمن ذلك النص على أن النكاح بين شخص ابيض وآخر زنجي، يعتبر نكاحاً باطلاً، والنص على أن كل من يطبع أو ينشر أو يوزع ما فيه حث للجمهور على إقرار المساواة الاجتماعية والزواج بين البيض والسود أو تقديم حجج لجمهور أو مجرد اقتراح في هذا السبيل، يعتبر عمله جريمة، يعاقب عليها القانون بغرامة لا تتجاوز خمسمائة دولار أو بالسجن لمدة لا تتجاوز ستة أشهر أو بالعقوبتين [1].

(١) المدخل لدراسة الفقه الإسلامي للدكتور عبدالكريم زيدان ص٤١ نقلا عن كتاب " الرق بيننا وبين أمريكا "، ص٤٩ للأستاذ علي شحاتة.

فإذا كان هذا هو ما يحدث في تشريعات بعض ولايات الدولة التي تزعم أنها رائدة الحضارة في القرن العشرين فناهيك عما يحدث في غيرها كجنوب أفريقيا مثلاً حيث يضج ضمير الأمة كله من أهوال التفرقة العنصرية بين البيض والسود هناك بينما هم سادرون في غيهم دون أن يعيروا العالم كله في هذا الشأن أي اهتمام.

فأين هذا من قول الرسول ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**. فالإسلام لا يعير لون الإنسان وشكله الخارجي أي اهتمام بجانب حقيقته وجوهره، وإلا فما قيمة البشرة البيضاء إذا كان صاحبها يترسب في أعماقه كل معاني الخسة والندالة؟ ما قيمة البشرة البيضاء إذا كان صاحبها يتصف بالغدر والخبث والخداع والمكر؟ ما قيمة إنسان أبيض إذا كانت نفسه مقفرة من كل معاني الخير بينما يهيم، وفيها كل خفافيش الحقد والغطرسة والكبر؟ ما قيمة إنسان أبيض إذا كانت نفسه كالأدغال المزدحمة بالوحوش الضارية والعقارب السامة والحيات الرقطاء؟ ما قيمة إنسان أبيض إذا كان قلبه مظلماً حالك السواد لا يتخلله أي بصيص من نور الحق؟ ما قيمة إنسان كهذا بجانب إنسان أسود، ولكن قلبه مفعم بالإيمان، وينبض بحب الخير للإنسانية جمعاء إنه لا مجال للمقارنة بيت الاثنين في دنيا المثل والقيم والأخلاق.

* * *

العدالة في الإسلام

وأثرها في القضاء والحكم

العدالة في الإسلام هي: إعطاء كل ذي حق حقه على هدى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهو قبس من نور الله في الأرض، يبدد سجف الظلام أمام المقهورين، وطوق النجاة لكل من تتقاذفه أمواج الظلم في هذه الحياة، والبلسم الشافي لكل من أثخنته جراح البطش، وهي واحة الأمان للمجتمع كله، ينعم في ظلها بالهدوء والاستقرار، ويؤدي رسالته غير منقوصة نحو سعادته وسعادة البشرية كلها ويحظى برضاء الله.

ومن ثم لو أصابها خلل فقل على الدنيا السلام، حيث يعم الفساد كل مكان ويشيع الظلم ويؤول المجتمع إلى الخراب والدمار ويحيق به الهوان فضلاً عن غضب الله وسخطه.

ولما كان للعدالة كل هذه الأهمية البالغة نرى الإسلام قد أولاها كل عناية واهتمام فنص عليها في أكثر من موطن من كتاب الله وسنة رسوله.

يقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (١).

ويقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء.
(٢) الآية ١٠٥ من سورة النساء.
(٣) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ (٥).

ويقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (٦).

ويقول: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (٧).

ويقول الرسول ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ على عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه،**

(١) الآية ٨ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٩٠ من سورة النحل.
(٣) الآية ٤ من سورة ص.
(٤) الآية ١٥ من سورة الشورى.
(٥) الآية ١٧ من سورة الشورى.
(٦) الآيات ٧-٩ من سورة الرحمن.
(٧) الآية ٢٥ من سورة الحديد.

ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» متفق عليه [1]، فالإمام العادل هو أول السبعة الذين يظلهم الله في ظله وهذا يدل على مدى مكانة العدالة في الإسلام.

ويقول ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» [2].

ويقول: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟» قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه وإذا حكموا للمسلمين حكموا كحكمهم لأنفسهم».

ويقول: «إن أحب الناس إلى الله وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر».

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " ويل لديان أهل الأرض من ديان السماء يوم يلقونه إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض بهوى، ولا لقرابة ولا لرغبة ولا لرهبة وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه ".

وكلنا مطالبون بالعدالة بشكل عام حكاماً ومحكومين ومسؤولون عنها أمام الله تعالى يقول الرسول الكريم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته: الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته» متفق عليه.

ومن صور عدالة الرجل في بيته التي يطالب بها شرعا عدالته بين نسائه إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [3].

وعدالته بين أولاده، ومن ثم فقد روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: " وهبني أبي هبة فقالت أمي عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أن أم هذا

(١) رياض الصالحين.
(٢) رياض الصالحين ص ٢٨٣ نقلاً عن صحيح مسلم.
(٣) الآية ٣ من سورة النساء.

أعجبها أن أشهدك على الذي وهبت لابنها، فقال ﷺ :«يا بشير ألك ولد سوى هذا؟»قال: نعم، قال:«كلهم وهبت لهم مثل هذا؟» قال لا، قال:«فأرجعه». وفي رواية البخاري:«اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» وفي لفظ مسلم:«فأشهد على هذا غيري» وفي لفظ لأحمد بن حنبل:«لا تشهدني على جور إن لبنيك من الحق أن تعدل بينهم». ومعنى كون العدالة مطلوبة بين الناس جميعاً أنه يجب على كل أحد أن يزن كل أقواله وأفعاله وتصرفاته بميزان الشريعة فلا يظلم ولا يجور ولا يغدر ولا يغش ولا يأتي بميزان الشريعة فلا يظلم ولا يخون ولا يغدر، ولا يأتي أي تصرف يتضمن ضرراً بأحد فإن أتى أي شيء من ذلك كان ظالماً وكانت مغبة ظلمه وخيمة عليه في الدنيا والآخرة.

وإذا كانت هذه هي مسؤولية الناس جميعا تجاه العدالة، فإن مسؤولية القاضي وكل من يشارك في شؤون الحكم، أو يتولى أي وظيفة قيادية أشد وأقصى.

مسؤولية القاضي تجاه العدالة في الإسلام:

القضاء بلا عدالة شبح كئيب بشع يثير الخوف والفزع في نفوس المظلومين وأداة بطش في أيدي الطغاة، يكتمون به كل صوت للحق يعلو، ومعول فساد ينزل به المستبدون، على كل معقل للفضيلة في الأرض، وسيفاً ماضياً يسلطه الأقوياء على رقاب الضعفاء، ومخلباً فتاكاً ينهش به الظالمون أجسام الأبرياء وحصناً للرذيلة يأوي إليه القتلة واللصوص وعشاق الضلال.

وإن قضاء هذا شأنه لهو أشبه ما يكون بجسم تعبث به روح شيطانية شريرة وتقوده إلى ارتكاب أبشع الجرائم والآثام، أو أشبه ما يكون ببنيان أقيم على شفا جرف هار، لا يلبث أن ينهار على رؤوس من أقاموه ثم يهوي بهم في نار الجحيم.

لذا كانت العدالة هي الأساس الذي يقام على متنه صرح القضاء الإسلامي، وهي المحور الذي يدور حوله أحكام هذا القضاء، بل هي الدم النقي الذي يسري في شرايينه، فيبعث فيه دفء الحياة، والنسمة الندية

الطاهرة التي تدب في كيانه فتجعله ينشر في ربوع الكون كل معاني الأمان والأمن.

ومن ثم، فإنه يجب على القاضي في الإسلام أن يلتزم الحياد تجاه المتخاصمين، ويسوى بينهم في كل شيء حتى في الأمور التي قد تبدو للبعض أن عدم التسوية فيها هين ويسير، ولا يترتب عليها مخاطر كبيرة، وذلك كالمقعد واللحظ والإشارة، ورفع الصوت على أحدهما دون الآخر، فإن التفرقة في هذه الأمور، وما شاكلها تعتبر في نظر الإسلام، ظلماً فادحاً وجوراً كبيراً، إذ تترك في نفس الخصم الذي لم يحظ بها شكا في عدالة القاضي، ونزاهته، وتخلف في أعماقه جرحاً معنوياً، عميقاً يصعب علاجه، حيث يشعر بالإهانة في الوقت الذي يحظى فيه خصمه بالتكريم.

ولذا يقول الرسول ﷺ: **«من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومقعده»**، ويقول: **«من ابتلي بالقضاء بين الناس فلا يرفعن صوته على أحد ما لا يرفع على الآخر»**.

وإذا كانت العدالة بين المتخاصمين في مثل هذه الأمور المعنوية اليسيرة مطلوبة ومؤكدة فلا شك أنها تكون في غيرها من الأمور المتعلقة بذات الحق أشد طلباً وأكثر تأكيداً، فمن أبرز خصائص القضاء الإسلامي وأسمى سماته أنه لا يعرف تميزاً في الحق بين بني البشر جميعاً، فلا تفرقة فيه بين إنسان وآخر بسبب الاختلاف في الجنس أو اللون أو الدين، وكذا لا تفرقة فيه بين حاكم ومحكوم فالكل في ساحة العدالة الإسلامية سواء.

فالقاضي مطالب من قبل الشريعة بألا يفرق بين من تربطه بهم صلة محبة ومودة وقربى وبين ما تشيع بينه وبينهم العداوة والبغضاء، إذ يقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١).

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وهو أيضا مطالب بأن يعدل بين المسلمين وغير المسلمين حيث لا ينبغي أن يحمله الاختلاف في الدين إلى إنزال الظلم بغير المسلم إذ يقول ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢).

وقد تأصل هذا المعنى في أعماق المسلمين، فهذا عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا بهذا قامت السموات والأرض (٣).

وروي أن ابن عمرو بن العاص - والي مصر حينذاك - قد سابق قبطيًّا(٤) على فرسين لهما فسبقه القبطي، فانهال عليه ابن عمرو بالسوط وهو يقول: خذها وأنا ابن الأكرمين " ولم ينصف عمرو المصري، بل حبسه حتى لا يصل أمره إلى عمر، ولكن المصري تمكن من الهرب، وتظلم لدى الخليفة فأحضر عمرًا وابنه، وناول المصري عصاه، وقال اضرب بها ابن الأكرمين، فضربه المصري حتى أثخنه وعمر يستزيد، ويقول: اضرب ابن الأكرمين، ثم التفت عمر إلى المصري، وقال له: اجعلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال المصري: يا أمير المؤمنين: قد ضربت من ضربني فقال له الخليفة: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه، ثم التفت إلى عمرو، وقال له قولته المشهورة: متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم

(١) الآية ٨ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٨ من سورة الممتحنة.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٥٦٥.
(٤) الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي للدستور للأستاذ الدكتور عبدالحميد متولي ص ٩٠.

أمهاتهم أحرارا؟ وقال للمصري: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليَّ " [1].

والقاضي مطالب كذلك بأن يسوى بين من يتسنمون قمة الهرم الاجتماعي، وبين من يقبعون في السفح، فالإسلام قد سوى بين الجميع في الحقوق والواجبات، ومن ثم يقول الرسول ﷺ :**«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى»**.

وروي عنه ﷺ أنه قال:**«إنما أنا بشر مثلكم ولعله قد أصابني حقوق لكم فمن قد أصبت من عرضه أو من شعره أو من ماله شيئا فهذا عرض محمد وشعره وبشره وماله فليقم وليقتص مني، واعلموا أن أولاكم بي رجل كان له شيء من ذلك، فأخذه أو حللني فلقيت ربي وأنا محل من ذلك، لا يقولن أحد أني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله فإنها ليسا من طبيعتي ولا من خلقي، ومن غلبته نفسه فليستعن بي حتى أدعو له»**.

وعن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ:**«أتشفع في حد من حدود الله؟»** ثم قام فاخطتب فقال:**«أيها الناس، إنما هلك من كان من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»** [2].

ولهذا يقول ابن قدامة الحنبلي: ويجرى القصاص بين الولاة والعمال وبين رعيتهم لعموم الآيات والأخبار، ولأن المؤمنين تتكافأ دماؤهم، ولا نعلم في هذا خلافاً، وثبت عن أبي بكر ﷺ، أنه قال لرجل شكا إليه عاملاً أنه قطع يده ظلماً لئن كنت صادقاً لأقيدنك منه ".

وروي عن أبي داود أن عمر خطب فقال: " إني لم أبعث عمالي

(١) عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة للأستاذ سليمان الطماوي ص ٢٨٣.

(٢) سنن ابن ماجة، ٨٥١/٣ باب الشفاعة في الحدود.

ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم فمن فعل به ذلك فليرفعه إلي أقصه منه، فقال عمرو بن العاص لو أن رجلاً أدب بعض رعيته تقصه منه؟ قال: أي والذي نفسي بيده أقصه منه، لقد رأيت رسول الله ﷺ قص من نفسه ".

وقال القرطبي: " أجمع أهل العلم على أن على السلطان أن يقص من نفسه، إن تعدى على أحد من الرعية، إذ هو واحد منهم، وإنما له ميزة النظر كالوصي والوكيل وذلك لا يمنع القصاص، وليس بينه وبين العامة فرق في كتاب الله ﷻ ".

تلك هي بعض مسؤوليات القاضي، تجاه تحقيق العدالة بين المتخاصمين، فليس له أن يحيد عنها قيد أنملة، ومن ثم فقد حذرته الشريعة من ذلك أيما تحذير.

يقول رسول الله ﷺ:«**من جعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين**» وذلك إذا تهاون في أمر العدالة.

ويقول:«**ما من حكم يحكم بين اثنين إلا جيء به يوم القيامة وملك أخذ بقفاه فيوثقه، على شاطئ جهنم ثم يرفع رأسه فإن قيل له ألقه ألقاه في مهواة يهوي فيها أربعين خريفاً**».

ويقول:«**ليس أحد من خلق الله يحكم بين اثنين إلا جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه فكه العدل أو سلمه**».

ويقول:«**إن الله مع القاضي ما لم يجر فإن جار تخلى عنه ولزمه الشيطان**».

ويقول:«**يجاء بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقي من شدة الحساب ما يتمنى أن لم يقض بين اثنين**».

ويقول:«**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق وقضى به، واللذان في النار رجل عرف الحق فجار في حكمه ورجل قضى للناس على جهل**».

وجاء في حديث أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني: قال:«**إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**».

ومن ثم يتبين لنا كيف أن القضاء محفوف بالمخاطر، ولذا نرجو لمن يتحرقون شوقاً إليه، ويسيل لعابهم أمام مظاهره ومغرياته، أن يفكروا ألف مرة ومرة قبل أن يقدموا على الاشتغال به إن كانوا لا يريدون أن يخسروا آخرتهم على حساب دنياهم، لأن موارده إلى الشر كثيرة متشعبة، ومزالقه إلى الهلاك متعددة متشابكة، ولا يستطيع الخلاص من هذه وتلك إلا أولو العزم من المؤمنين الصادقين الذين لا يبغون من القضاء مظهراً فارغاً ومكسباً فانياً ولا علواً في الأرض ولا فساداً، وإنما ينشدون فقط إحقاق الحق وإبطال الباطل ونصرة المظلوم على الظالم، ورفع راية العدل خفاقة أولئك فقط هم الناجون وأولئك هم الفائزون.

أئمة أعلام يرفضون القضاء:

لما كان القاضي يتحمل مسؤولية خطيرة، أمام ربه، فإنا نرى الكثير من السلف الصالح قد آثروا السلامة لدينهم خشية أن يصيبهم بعض شوائبه، فعزفوا عنه ولم يتعلقوا به، رغم أنه عرض عليهم أكثر من مرة، ولحق بعضهم السجن والتعذيب، بسبب رفضهم له فتحملوا السجن وظلوا متمسكين بموقفهم حرصاً على سلامة دينهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة:

فمن ذلك مثلاً: أن عثمان بن عفان قد عرض على عبد الله بن عمر القضاء، فقال: لا أقضي بين رجلين، فقال له عثمان: إن أباك كان يقضي، فقال إن أبي كان لو أشكل عليه سأل رسول الله ﷺ، وإذا أشكل على رسول الله ﷺ سأل جبريل، وأني لا أجد من أسأله.

وقال مكحول: لو خيرت بين القضاء والقتل اخترت القتل.

وقال بعضهم بعد أن تولى القضاء وشعر بالندم

فيا ليتني لم أك قاضيا ::: ويا ليتها كانت القاضية

وأما الإمام أبوحنيفة فقصته من أبي جعفر المنصور، في هذا الشأن تثير الأسى والألم في النفس من جهة وتبعث على الاحترام والتقدير لهذا الإمام من جهة أخرى.

فقد روي " أن أبا حنيفة لما أشخص إلى بغداد، قال: إن هذا دعاني

للقضاء - يقصد أبا جعفر المنصور - فأعلمته أني لا أصلح، وأني لا أعلم أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر، ولكنه لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك وعلى ولدك وقوادك ولست تلك النفس لي... قال: فلم لا تقبل صلتي؟ فقلت: ما وصلني أمير المؤمنين من ماله بشيء فرددته ولو وصلني بذلك لقبلته، إنما وصلني أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين ولا حق لي في بيت مالهم، إني لست ممن يقاتل من ورائهم، فآخذ ما يأخذ المقاتل ولست من ولدانهم، فآخذ ما يأخذ الولدان، ولست من فقرائهم، فآخذ ما يأخذ الفقراء، وقال: " فأقم تأتك القضاة، فيما لعلهم إن يحتاجوا إليك فيه " [١] فامتنع عن ذلك كما سيأتي.

وجاء في المناقب لابن البزاري " أن أبا جعفر حبس أبا حنيفة على أن يتولى القضاء ويصير قاضي القضاة فأبى حتى ضرب مئة وعشرة أسواط. وأخرج من السجن، على أن يلزم الباب، وطلب منه أن يفتي فيما يعرض عليه من الأحكام، وكان يرسل إليه المسائل وكان لا يفتي فأعيد وغلظ عليه وضيق تضييقاً شديداً " [٢].

وجاء في تاريخ بغداد " أشخص - يعني أحضر- أبو جعفر أبا حنيفة فأراده على أن يوليه القضاء فأبى، فحلف ليفعلن، فحلف أبوحنيفة ألا يفعل، فحلف المنصور ليفعلن، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، فقال الربيع - الحاجب -: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟ فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة إيمانه اقدر مني، وأبى أن يلي فأمر به إلى الحبس " [٣].

وجاء في تاريخ بغداد أيضاً عن الربيع بن يونس " رأيت أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول: اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات، أو أن إلى الحكم، لاخترت أن أغرق، لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك

(١) انظر الإمام " أبا حنيفة حياته وعصره " للإمام أبي زهرة ص ٤٩ نقلاً عن كتاب " المناقب " للموفق المالكي.
(٢) انظر: المرجع السابق.
(٣) انظر: المرجع السابق.

فلا أصلح لذلك، فقال له: كذبت أنت تصلح، فقال: حكمت على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب " [1].

ويعلق الإمام أبو زهرة - رحمه الله تعالى - على هذه الروايات بقوله: ذكرنا هذه الراويات لنضع بين يدي القارئ ما تجري به الروايات المختلفة في المحنة التي أنزلها المنصور بأبي حنيفة، وإن اختلاف المحاورات بين أبي حنيفة والمنصور باختلاف الروايات لا تدل على تضاربها، بل تدل على أن العرض قد اختلفت مجالسه وتعددت وتباينت الأقوال فيه ".

* * *

(١) المرجع السابق ص ٥٠.

obeikandl.com

صور مشرقة من القضاء الإسلامي

تمهيد

المساواة في القضاء الإسلامي ليست مجرد نظرية وهمية تحلق في عالم الخيال، ويربأ بنفسها أن تنزل من عليائها إلى أرض الواقع، ولا مجرد شعار منمق بزخرف القول وزينة، بل هي حقيقة واقعة ملموسة عايشها الناس حينا من الدهر، وهنأنا بهم وهنئوا بها، وكان ذلك في صدر الإسلام، وأما بعد ذلك العصر، فقد كانت تختفي وتظهر على مسرح الحياة حينا آخر، وذلك حسب قوة إيمان الحكام أو ضعفهم.

هذا وإنه ليجدر بنا أن نعرج على هذا الوادي الخصيب الذي يزخر بالقضايا التي تجلت فيها المساواة بين المتخاصمين في أبهى حللها وأزهى صورها حتى فاح منها عبير العدل زكيا نقيا طاهرا فانتشى منه الوجود.

١ـ الوحي ينزل ببراءة يهودي وإدانة مسلم:

روي المفسرون أن رجلا من الأنصار يقال له طعمه بن أبيرق - أحد بني ظفر بن الحارث - سرقا درعا من جار له يقال قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب به دقيق فجعل الدقيق ينتثر عن خرق الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها اثر الدقيق، ثم خبأها عند يهودي يقال له زيد بن السمين، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم انه لم يأخذها وما له من علم، فقال أصحاب الدرع بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق، فلما أن حلف وتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال دفعها إلي طعمه بن أبيرق وشهد له ناس من اليهود على ذلك، فقال بنو ظفر - وهم قوم طعمه - انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فكلموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودي وهم رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودي باعتبار أن القرائن تشير إلى إدانته وبراءة المسلم فاثر الدقيق وأن كان قد أنتهى إلى كل من دار المسلم ودار اليهودي إلا أن الدرع قد وجد في دار

اليهودي، وقد حلف لهم المسلم ولم تقم بينة على أنه السارق، فالمسلم بريء من حيث الظاهر واليهودي مدان من حيث الظاهر أيضاً.

ولما كانت الأحكام تبنى على ظواهر الأمور حيث لا إطلاع لأحد على بواطنها فإن الرسول ﷺ كان بسبيل إنزال العقوبة باليهودي.

ولما كانت العدالة الإلهية تأبى أن يؤخذ بريء بجريمة مذنب حتى وإن كان البريء غير مسلم والجاني مسلما فقد نزل الوحي ببيان الحقيقة مثبتاً التهمة على طعمة بن بيرق المسلم ومبرئا منها زيد بن السمين اليهودي.

ولم يقتصر الوحي على مجرد إثبات التهمة على هذا وتبرئة ذلك وإنما جاء في صورة عتاب للنبي ﷺ إذ جنح إلى تصديق قوم طعمه في دفاعهم عنه كما جاء في صورة تقريع مقذع لقوم طعمه إذ كان دفاعهم عنه غير نابع من منطق العدالة التي لا تنحاز إلى مسلم على حساب كافر. وإنما كان دفاعهم عنه نابعاً من منطق العصبية، ليس إلا، وكان أحرى بهم بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام أن يكون الحق رائدهم أولاً وأخيراً، ومن ثم فهذا يعتبر درساً عمليا لكل المسلمين على مدى العصور والأزمان.

فقد روي الإمام النيسابوري في كتابه " أسباب النزول " أن الله تعالى قد أنزل هذه الواقعة قوله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ

ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ (١).

٢ـ إصرار عمر على القصاص من ملك لأحد الرعايا:

" كان جبلة بن الأيهم من ملوك آل جفنة أسلم، هو وقومه وحضر لزيارة عمر في المدينة في خمسمائة من أهل بيته في كامل، زينتهم ففرح به عمر كقوة جديدة للإسلام وأدنى مجلسه وخرج معه للحج، وبينما وهو يطوف حول الكعبة، وطئ أزاره رجل من بني فزارة، فانحل، فأخذت جبلة العزة بالإثم وضرب الفزاري على وجهه، فحطم أنفه فاستعدى عليه عمر، وأقر جبلة بما هو منسوب إليه، فقال عمر: لقد أقررت، فإما أن ترضي الرجل، وإما أن اقتص منك بكسر أنفك، فقال جبلة: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك، فقال له عمر: إن الإسلام، قد سوى بينكما، فلست تفضله في شيء إلا بالتقوى والعافية، قال جبلة: يا أمير المؤمنين، كنت أظن أني أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية. قال الخليفة في حزم: دع عنك هذا، فإنك إن لم ترض الرجل اقتصصت منك. قال جبلة: إذن أتنصر، قال الخليفة: إن تنصرت ضربت عنقك لأنك قد أسلمت، فإن ارتددت قتلتك.

فلما أيقن جبلة الصدق من عمر، قال: أنا ناظر في أمري هذا ليلتي هذه، فأذن له في الانصراف، حتى إذا نام الناس وهدءوا تحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام، ثم فر إلى القسطنطينية، ودخل إلي هرقل فتنصر هو وقومه، فسر هرقل بذلك، وأكرمه وأجرى عليه وجعله من محدثيه وسماره (٢).

(١) الآيات ١٠٥-١١٦ من سورة النساء.

(٢) عمر بن الخطاب وأصول السياسة، والإدارة للأستاذ الدكتور سليمان الطماوي ض

٣ـ عمر يكتب إلى واليه في مصر أن يجلس لأحد الرعايا ليقتص منه:

" قال جرير بن عبدالله البجلي: أن رجلا كان مع أبي موسى الأشعري وكان ذا صوت ونكاية في العدو، فغنموا مغنماً، فأعطاه أبو موسى بعض سهامه، فأبى أن يقبله إلا جميعه، فجلده أبو موسى عشرين سوطاً وحلقه، فجمع الرجل شعره، ثم رحل إلى عمر بن الخطاب حتى دخل عليه، قال جرير - راوي الخبر- وكنت أقرب الناس من عمر حين أدخل عليه فأخذ شعره، ثم ضرب به صدر عمر بن الخطاب، ثم قال: أما والله لولا النار. وقال ضربني أبو موسى عشرين سوطاً وحلق رأسي. فقال عمر لأن يكون الناس كلهم على صراحة هذا أحب إلي من جميع ما أفاء الله علينا، وكتب عمر إلي أبو موسي:

سلام عليك... أما بعد فإن فلانا اخبرني بكذا وكذا، فإن كنت فعلت ذلك في ملأ من الناس، فعزمت عليك لما قعدت له في ملأ من الناس، حتى يقتص منك، وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس، فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك.

فقدم الرجل، فقال له الناس: أعف عنه فقال: لا والله لا أدعه لأحد من الناس فلما قعد أبو موسى ليقتص منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء، ثم قال: اللهم إني قد عفوت عنه [1].

٤ـ الحكم بضرب عمرو بن العاص:

قال عمرو بن العاص لرجل على ملأ من الناس، يا منافق فقال الرجل: ما نافقت منذ أسلمت، ولا أغسل رأسا، ولا أدهنه، حتى آتى عمر، فأتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين أن عمرًا ونفقني والله ما نافقت منذ أسلمت.

فكتب عمر إلى عمرو - وكان إذا غضب سماه العاصي بن العاص...

---

٣٣٨ وانظر فيها:أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر، تأليف على الطنطاوي وناجي الطنطاوي ص ٢٣٤-٢٤٤.

(١) انظر:أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر، تأليف على الطنطاوي وناجي الطنطاوي ص ١٨١-١٨٢نقلاً عن أبي الجوزي ص ٨٣.

Open Kanal.com

أما بعد

فإن فلان ذكر أنك نفقته، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين، أن يضربك أربعين - أو قال سبعين - فقام الرجل بعد قدومه، فقال أناشد الله رجلاً سمع عمرًا نفقني إلا قام فشهد، فقام عامة من في المسجد، فقال له حنتمه: تريد أن تضرب الأمير؟ وعرض عليه الأرش، أي التعويض - فقال لو ملأت هذه ما قبلت، فقال له حنتمه أتريد أن تضربه؟ فقال الرجل ما أرى لعمر هاهنا طاعة، فلما ولى قال عمرو: ردوه فأمكنه من السوط، وجلس بين يديه، فقال له الرجل: أتقدر أن تمتنع عني بسلطانك، قال: لا، فأمض لما أمرت به، قال الرجل: فإني قد عفوت عنك [1].

٥- حكم قضائي يكون سببا في إسلام يهودي:

روي أن عليا خرج إلى السوق، فإذا هو بيهودي يبيع درعا، فعرفها على فقال: هذه درعي، بيني وبينك القاضي، فأتيا شريحاً، فقال شريح: ما تشاء يا أمير المؤمنين، قال: درعي سقط عن جملي، فالتقطها هذا اليهودي، قال شريح: ما تقول يا يهودي؟ قال: درعي وفي يدي، قال شريح: صدقت، والله يا أمير المؤمنين، ولكن لابد من شاهدين، فدعا قنبر والحسن بن علي، فشهدا إنها درعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك فلا نجيزها، فقال على لليهودي: خذ الدرع، فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين، فقضى عليه، ورضى، صدقت يا أمير المؤمنين إنها لدرعك، سقطت جمل لك التقطتها، أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فوهبها له علي، وأجازه بتسعمائة درهم.

٦- عمر يضاعف الحد على ابنه:

عن عمرو بن العاص قال: بينما أنا في منزلي بمصر، إذ قيل: هذا عبد الرحمن بن عمر، وأبو سروعة، يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلا وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حد الله، فإنا أصبنا البارحة شرابا وسكرنا.

(١) المرجع السابق ص ١٨٤- ١٨٥.

قال: فزجرتهما وطردتهما، فقال عبدالرحمن: إن لم تفعله أخبرت والدي إذا قدمت عليه فحضرني رأي وعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد، غضب على عمر في ذلك، وعزلني وخافه ما صنعت، فنحن على ما نحن عليه إذ دخل عبدالله بن عمر، فقمت إليه ورحبت به، وأردت أن أجلسه في صدر مجلسي فأبى، وقال: نهاني أبي أن أدخل إلا أن لا أجد من ذلك بدا، أن أخي لا يحلق على رؤوس الناس، فأما الضرب فاصنع ما بدا لك.

قال عمرو بن العاص: وكانوا يحلقون مع الحد، فأخرجتهما إلى صحن الدار، فضربتهما الحد، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت من الدار، محلق رأسه ورأس أبي سروعة، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان، حتى إذا تحينت كتابة إذا هو فيه نظم: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى العاصي بن العاص، عجبت لك يا بن العاص، ولجرأتك علي وخلاف عهدي، فما أراني إلا عازلك، فمسيء عزلك تضرب عبدالله في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني، إنما عبدالله رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت إلا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه، فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع.

قال: فبعثت به كما قال أبوه، وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه، وأخبره أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر " [1].

فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل عليه وعليه عباءة، ولا يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال: يا عبد الرحمن، فعلت، وفعلت، فكلمه عبدالرحمن بن عوف وقال: يا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحد، فلم

(١) عبقرية عمر ص ٢٣-٢٤، وعمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة للأستاذ سليمان الطماوي ص ٨٢-٨٣، والرياض النضرة ج٢ ص١٠٩-١١٠.

يلتفت إليه، فجعل عبد الرحمن يصيح، ويقول: إني مريض وأنت قاتلي، فضربه الحد ثانية وحبسه فمرض حتى مات ".

وهذه الفقرة الأخيرة لا نطمئن إليها حيث روى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ما يناقضها، إذ يقول: فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه، ثم أرسله فلبث شهراً صحيحياً، ثم أصابه قدره، فتحسب عامة الناس أنه مات من الجلد، ولم يمت منه ". فعبد الله هو أدرى الناس بأخيه قبل أي أحد آخر.

٧- عمر يصادر تجارة أولاده لبيت المال:

روي أن عبد الله و عبيدالله ابني عمر، خرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري - وهو أمير البصرة - فرحب بهما، وأراد أن يسدي إليهما معروفاً فقال لهما: ها هنا مال من مال الله، أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، وأسلفكما فتبتاعان به من متاع العراق، ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون لكما الربح، ففعلاً، وكتب إلى عمر ليأخذ منهما المال، فلما قدما على عمر، قال: كل الجيش أسلف كما أسلفكما؟ فقالا: لا، فقال عمر: أديا المال وربحه.

أما عبدالله- وكان أشبه الناس بأبيه ورعا وتقوى، ومن ثم كان أحب أبنائه إليه - فسكت، وأما عبيد الله فقال: الربح من حقنا، لأنه لو هلك المال أو نقص للزمنا ضمانه، فقال بعض الحاضرين من الصحابة إجعل المال قراضاً - أي شركة - فوافق على ذلك عمر، فأخذ المال ونصف الربح وترك لهما نصف الربح، وكان ذلك حلاً وسطاً، لأن حجة كل من عمر وابنه قوية وهناك تعارض بينهما، وهذا الرأي قد وفق بين الحجتين.

* * *

ضمانات العدالة في
التشريع الإسلامي

تاريخ التشريع الإسلامي ومبادئه

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد:

لكي تظل العدالة في القضاء الإسلامي شامخة فتية، فإن الإسلام قد أحاطها بالكثير من الضمانات التي تصون وجودها وتحفظ كيانها وأن هذه الضمانات تتمثل في الآتي:

١- اختيار القاضي الكفء.
٢- التوسيع عليه في الرزق.
٣- استقلال القضاء.
٤- تحريم الرشوة والهدايا.
٥- بطلان الحكم بعلم القاضي
٦- إلزام القاضي اتباع منهج معين إزاء الشهود
٧- النهي عن كتمان الشهادة وعن شهادة الزور.
٨- التفريق بين المتهمين.
٩- تحذير المتخاصمين أن يأخذ أي منهما ما لا يستحقه.
١٠- اقتران الحكم بأسبابه.
١١- النهي عن القضاء حالة الغضب.
١٢- المتهم بريء حتى تثبت إدانته.
١٣- بطلان حكم القاضي لنفسه.
١٤- حق المتهم في الدفاع عن نفسه.
١٥- نقض الحكم إذا خالف نصا أو إجماعا.
١٦- التعويض عن الضرر الناجم عن الخطأ في الحكم وإدانة المتسبب في الضرر.

obeikandl.com

الضمانة الأولى:

اختيار القاضي الكفء

إن اختيار القاضي الكفء ليعتبر من أهم ضمانات العدالة في القضاء الإسلامي لأن القاضي هو الذي يمسك بيده ميزانها فيجب أن تتوافر فيه المواصفات التي اشترطها الفقهاء فيه والتي على رأسها جميعاً الشجاعة في الحق والورع والفطنة والعلم بالفقه وعلوم الشريعة وخاصة فيما يتعلق بالأحكام.

فإذا لم يكن القاضي ورعاً انعكس ذلك بالطبع على أحكامه فتصدر جائرة وإن كان القانون الذي بين يديه هو قانون أعدل العادلين.

وإذا لم يكن ذكياً لماحاً ألتبس عليه الحق بالباطل والصواب بالخطأ وظل تائهاً حيراناً في خضم القضايا تعصف به رياح الظنون وتعبث بأفكاره حجج الخصوم.

وإذا لم يكن عالماً باللغة والشريعة اتسمت أحكامه بالعفوية والعشوائية إن أصابت وجه الحق مرة أخطأته مرات.

ومن ثم فإن الشريعة جعلت أمر اختيار القاضي أمانة في عنق الحاكم وحذرته من التهاون في هذا الأمر إذ يقول الرسول ﷺ: «**من تولى من أمر المسلمين شيئا فاستعمل عليهم رجلاً وهو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين**» أخرجه أبو داود عن ابن عباس.

ومن أجل ذلك فإن الرسول ﷺ قد امتنع عن إسناد الإمارة إلى أبي ذر الغفاري حين رآه غير كفء لها، فقد روي عن أبي ذر ﷺ قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني، قال: «**يا أبا ذر إني أحب لك ما أحبه لنفسي ـ ولكني أراك ضعيفاً، وإنها لأمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**».

وكان عليه الصلاة والسلام يأبى أن يولي القضاء أحدا سأله إياه، فقد

روي أنه قال:«إنا لا نولي هذا الأمر أحدا سأله ولا أحد حرص عليه».

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يترسمون خطا الرسول ﷺ إزاء توجيهاته إياهم في كل شؤون دينهم ودنياهم.

ولذا كانوا لا يعهدون بالقضاء إلى أحد إلا بعد أن يطمئنوا إلى نزاهته وشجاعته في الحق ومعرفته بأحكام الشريعة وتقواه.

١- فمن ذلك مثلاً: أن عمر بن الخطاب حين عهد إلى شريح بالقضاء فقد كان ذلك بعد أن وقف بنفسه على صلاحيته لهذا المنصب أثر حكم أصدره في قضية تحكيم وكان هو أحد الخصمين فيها.

وخلاصة هذه القضية أن عمر ﷺ قد ساوم رجلاً على فرس فركبه ليجربه، فعطب الفرس، فقال لصاحبه: خذ فرسك فرفض، فقال عمر: اجعل بيني وبينك حكما، فقال الرجل: رضيت شريحاً العراقي، فتحاكما إليه فقضى بتضمين عمر ثمن الفرس قائلاً: خذ ما ابتعت، أو رد كما أخذت سليماً صحيحاً، فأعجب عمر بحكمه وقال: هل القضاء إلا هذا؟ ثم بعثه قاضياً على الكوفة.

٢- ومن ذلك أيضا: أن كعب بن سوار كان جالساً عند عمر بن الخطاب فجاءت امرأة، فقالت: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلا قط أفضل من زوجي، والله إنه ليبيت ليله قائما، ويظل نهاره صائماً، فاستغفر لها عمر وأثني عليها، فقال كعب، يا أمير المؤمنين هلا أعديت المرأة على زوجها قال: وما شكت؟ قال: شكت المرأة أشد الشكاية، قال: أو ذاك أرادت؟ قال: نعم. قال: ردوا عليَّ المرأة، وقال: لا بأس بالحق أن تقوليه إن هذا زعم أنك جئت تشكين زوجك أنه يتجنب فراشك، قالت: أجل إني امرأة شابة وإني لأبتغي ما يبتغي النساء، فبعث إلى زوجها فجاء، فقال لكعب: اقض بينهما، قال أمير المؤمنين أحق أن يقضي بينهما قال: عزمت عليك لتقضين بينهما، فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم، قال: فإني أرى كأنها عليها ثلاثة نسوة فله ثلاثة أيام بلياليهن يتعبد فيهن ولها يوم وليلة، فقال عمر: والله رأيك الأول بأعجب من رأيك الآخر اذهب

فأنت قاض على أهل البصرة [1].

وإنه ليتضح من الرسالة التي بعث بها علي ﷺ إلى واليه في مصر مدى ما كانوا يتخذونه من حيطة وحذر عند اختيار القاضي، إذ يقول ﷺ: "... ثم اتخذ للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الذلة، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه وأفقههم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمر وأصرمهم عند إيضاح الحكم ممن لا يغريه إطراء، ولا يستحليه إغراء وأولئك قليل... ".

* * *

(١) المجموع ١٥٧/١٩.

obeikandl.com

الضمانة الثانية:

التوسيع على القاضي في الرزق

إذا كان من الواجب على الحاكم أن يختار للقضاء من يكون متصفاً بصفات معينة، ليكون أهلاً لتولي هذا المنصب الخطير، فإنه من الواجب عليه أيضاً أن يرتب لهذا القاضي في بيت مال المسلمين رزقاً يكفيه، ويكفي كل من يعولهم، وأن يهيئ له كل أسباب الحياة الكريمة وذلك لهدفين:

الأول: أن يتفرغ للقضاء تفرغاً تاماً، إذ قد ينشغل بأي أمر من أمور الحياة المادية ليتمكن من أداء رسالته على أكمل وجه ممكن.

والثاني:حماية القاضي من نفسه إذ قد تدفعه - تحت وطأة الحاجة وقسوتها - إلى قبول الهدايا والرشاوى من المتخاصمين، مما يكون له أسوأ الآثار على العدالة، حيث لا يستطيع بعد ذلك أن يحتفظ بحياده إزاءهما فيصير صاحب الحق عنده من دفع دون من لم يدفع أو من دفع أكثر من الآخر وإذا تطرق مثل هذا الداء إلى القضاء فقل على العدالة السلام.

هذا وقد صح أن النبي ﷺ حين بعث عتاب بن أسيد إلى مكة قاضياً جعل رزقه أربعمائة درهم في كل عام، وروي أنه جعل مثل ذلك أيضاً لعمر ابن الخطاب، كما روي عنه أنه فرض لمعاذ لما بعثه إلى اليمن قال له: لعل الله يجبرك ويؤدي عنك دينك [1].

وروي البخاري عن حويطب بن عبد العزى أن عبدالله بن السعدي أخبره أنه قدم على عمر في خلافته، فقال له: " ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالاً، فإذا أعطيت العمالة كرهتها؟ قال نعم، فقال عمر: فما تريد إلي ذلك؟ قلت إن لي أفراساً وأعبداً وأنا بخير، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين، قال عمر: لا تفعل فإني كنت أردت الذي

(١) تاريخ القضاء في الإسلام للدكتور، أحمد عبد المنعم البهي ص ١٦٠.

أردت فكان الرسول ﷺ يقول: «**خذه فتموله وتصدق به فلا جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله، وتصدق به فلا تتبعه لنفسك**»[١].

وكما ثبت أن الرسول ﷺ كان يعطي قضاته رزقاً على القضاء فقد ثبت أن الخلفاء الراشدين كانوا يفعلون مثل ذلك أيضاً إزاء قضائهم.

فمن ذلك مثلاً: ما روي أن شريحاً كان يتقاضى على قضائه مائة درهم شهرياً في عهد عمر بن الخطاب فلما أفضت الخلافة إلي علي جعل رزقه كل شهر خمسمائة درهم.

وجاء في الرسالة التي بعث بها على إلي واليه في مصر والخاصة بإيصائه باختيار أفضل الناس لتولي منصب القضاء، وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس.

ولذا فقد بني فقهاء الإسلام على ما تقدم من أخبار وروايات إباحة أخذ الأجرة على القضاء فقد جاء في فتح الباري [٢]: ذهب الجمهور إلى جواز اخذ القاضي الأجر على الحكم لكونه يشغله عن القيام بمصالحه.

وقال الإمام الشافعي: والقضاء مما يجوز اخذ الرزق عليه من بيت المال لأن الله تعالى جعل للعاملين على الصدقات سهما فيها... ولأنه كما ارتزق الخلفاء الراشدون على الخلافة لانقطاعهم بها عن المكاسب كان القضاء بمثابتهم.

وإذا كان بعض قضاة السلف الصالح لم يقبلوا أخذ أجرة على القضاء [٣] فقد كان ورعاً منهم ورغبة في خدمة الإسلام والمسلمين لوجه الله تعالى ولا يتعارض هذا مع ما ثبت بالأدلة العملية في عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والتي تفيد جواز أخذ الأجرة على القضاء.

بل ونستطيع أن نقول: إن فرض أجر للقاضي الآن لا يعتبر جائزاً فقط بل أمر واجب لأنه قد ثبت إن نصب القضاء واجب على الحاكم

(١) فتح الباري ١٣/١٥٠.
(٢) فتح الباري ١٣/١٥٠.
(٣) فتح الباري ١٣/١٥٠.

حيث لا تستقيم أمور الناس بدونه وحيث لا يستطيع الحاكم وحده أن يقوم بهذه الوظيفة بجانب إطلاعه بكثير من الأعباء الجسام التي تتعلق بمشاكل الدولة في الداخل والخارج والتي تستنزف كل وقته وجهده.

ولو طلب الحاكم من يعمل بالقضاء دون أجر لما وجد أحدا من الناس يقبل ذلك لهيمنة المادة وسيطرتها على شؤون الحياة، ولكثرة مطالب الناس وشدة تطلعاتهم مع ارتفاع موجة الغلاء وجنون الأسعار.

وإذا حدث هذا لكان معناه أن تتعطل أعظم الوظائف الدينية والدنيوية معاً، ولخبا ضوء العدالة وصمت صوتها ولفظت أنفاسها، ولساد الظلم وعم الفساد.

وحتى لو وجد الحاكم من يعمل بالقضاء، دون أجر، فلا نأمن أن يكون الهدف من وراء قبول هذا الشخص هو التطلع إلى أخذ الرشاوى، وقبول الهدايا من المتخاصمين، ولا يكون ذلك إلا على حساب الحق والعدل،

ولذا يكون فرض أجر سخي للقاضي، بحيث يكفيه، ويجعل عيشه رغداً أمر واجب، ذلك درءاً للمفاسد وسداً للذرائع، وتحقيقاً للمصالح، فمن المعروف أن كل ما يحقق مصلحة أو يدفع مفسدة يكون واجباً على إمام المسلمين.

ولكن هل يجوز أن يأخذ القاضي أجراً من الخصوم إن تعذر حصوله على أجر من مال الدولة؟ هذا ما سوف نعرض لبيانه في المبحث التالي.

* * *

ارتزاق القاضي من الخصوم

يقول الماوردي:

" إذا تعذر حصول القاضي على رزق من بيت المال، وأراد أن يرتزق من الخصوم، فإن لم يقطعه النظر عن اكتساب المال إما لغناه وإما لقلة المحاكمات التي قد تمنعه من الاكتساب لم يجز أن يرتزق من الخصوم ".

وإن كان يقطعه النظر عن اكتساب المال جاز له الاكتساب منهم على

ثمانية شروط:

الأول: أن يعلم به الخصمان قبل التحاكم إليه، فإن لم يعلما به إلا بعد الحكم لم يجز أن يرتزقهما.

والثاني: أن يكون رزقه على الطالب والمطلوب ولا يأخذه من أحدهما فيصير به متهماً.

والثالث: أن يكون عن إذن الإمام لتوجه الحق عليه فإن لم يأذن به الإمام لم يجز.

والرابع: ألا يجد الإمام متطوعاً فإن وجد الإمام متطوعاً لم يجز.

والخامس: أن يعجز الإمام عن دفع رزقه فإن قدر عليه لم يجز.

والسادس: أن يكون ما يرتزقه من الخصوم غير مؤثر عليهم، ولا مضر بهم فإن أضر بهم أو أثر عليهم لم يجز.

والسابع: ألا يستزيد على قدر حاجته فإن زاد عليها لم يجز.

والثامن: أن يكون قدر المأخوذ مشهوراً يتساوى فيه جميع الخصوم وإن تفاضلوا في المطالبات لأنه يأخذه على زمان النظر، فلم تعتبر مقادير الحقوق فإن فاضل بينهم فيه لم يجز إلا أن يتفاضلوا في الزمان فيجوز.

وفي مثل هذا معرة تدخل على جميع المسلمين، ولكن جازت في الضرورات فواجب على الإمام وعلى كافة المسلمين أن تزال مع الإمكان. إما بأن يتطوع منهم بالقضاء من يكون من أهله، وإما أن يقام لهذا بكفايته، لأنه لما كانت ولاية القضاء من فروض الكفايات، كان رزق القاضي بمثابة ولايته. فلو اجتمع أهل البلد مع أعوان بيت المال على أن يجعلوا للقاضي من أموالهم رزقاً جاز، وكان أولى من أن يأخذه من أعيان الخصوم.

* * *

الضمانة الثالثة:

استقلال القضاء

لما كانت العدالة هي محور القضاء الإسلامي وهدفه الأسمى ولما كان تحقيق العدالة أمراً بعيد المنال فيما لو قيدت حرية القاضي، فيما لو لم يشعر بالاستقلال التام في تقرير الحق والباطل لما كان الأمر كذلك.

فقد حرص الإسلام على تهيئة مناخ الحرية في ساحة القضاء فحرم على الحاكم أن يتدخل في قضاء قضاته طالما كانوا ملتزمين بمبادئ الدين وتعاليم الكتاب والسنة، وإن الوقائع القضائية في صدر الإسلام لتؤكد هذا المعنى كل التأكيد.

فمن ذلك مثلا ما روي من أنه: " أتى عبد الله ابن مسعود برجل من قريش مع امرأة في ملحفتها، ولم تقم البينة على غير ذلك، فضربه عبد الله أربعين وأقامه في الناس، فانطلق قوم الرجل إلى عمر بن الخطاب فقالوا: فضح منا رجلاً، فقال عمر لعبدالله: بلغني أنك ضربت رجلا من قريش فقال: أجل أتيت به، وقد وجد مع امرأة من قريش في ملحفتها، ولم تقم البينة على غير ذلك، فضربته أربعين وعرفته في الناس، فقال عمر أرأيت ذلك؟ قال: نعم ما رأيت. فقالوا: جئنا نستعديه عليه فاستفتاه ".

ومن ذلك ما روي أن عمر بن الخطاب حين ولي شريحاً القضاء كتب إليه:

ما كان في كتاب الله فاقض به، وما لم يكن في كتاب الله فبما قضى النبي ﷺ، وما لم يكن في كتاب الله ولم يقض به النبي ﷺ فبما قضى به أئمة العدل، فإن لم تجد شيئا من ذلك فأنت بالخيار إن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك، وإن شئت أن تؤامرني ولا أري مؤامرتك إياي إلا أسلم لك ".

فإذا كان عمر قد نصح شريحاً بمشاورته عند عدم النص، فليس معنى هذا أن تكون المشاورة هنا حجراً على رأي القاضي، أو قيدا على حريته، وإنما المقصود منها التعاون في النظر بغية الوصول إلى الحق والعمل على تحري وجه الصواب عن طريق المشاركة في الرأي، وهذا

لا يمنع من أن يكون الاجتهاد الشخصي للقاضي هو الأصل فإن شاء الرجوع إلى الحاكم كان له ذلك، ولا يملك أحد إجباره على المشاورة وأن أثر المشاورة فيها ونعمت إذ يكون حكمه حينذاك اقرب إلى الصواب منه إلى الخطأ.

فكما هو واضح من عبارة هذا النص أن للقاضي حرية الاجتهاد إذا لم يجد حلاً للقضية التي أمامه في الكتاب أو السنة.

ولقد كان عمر بن الخطاب هنا متأسياً بالرسول ﷺ حين أقر معاذ بن جبل على الاجتهاد في القضاء، عند عدم النص، فقد روي أن الرسول ﷺ حين بعث معاذاً إلى اليمن قاضياً قال له: " قال:«**كيف تحكم إن عرض لك قضاء؟**»، قال: أقضي بكتاب الله ﷻ، قال:«**فإن لم تجد في كتاب الله**»، قال: أقضى بسنة رسول الله ﷺ، قال:«**فإن لم تجد في سنة رسول الله**»، قال: أجتهد رأيي، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال:«**الحمد الله الذي وفق رسول رسول الله بما يرضى رسول الله**».

ومن مظاهر استقلال القضاء في الإسلام منع الواسطة في الأحكام فقد روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: " إن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد الرسول ﷺ، فقالوا: من يجترئ عليه، إلا أسامة بن زيد فتكون وجه رسول الله ﷺ وقال: " أتشفع في حد من حدود الله " فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله بما هو أهله ثم قال:«**أما بعد فإنما هلك من كان من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها**».

وروي أن الزبير بن العوام لقي رجلاً، قد أخذ سارقاً، وهو يريد أن يذهب به إلى السلطان، فشفع له الزبير ليرسله، فقال: لا حتى أبلغ به السلطان، فقال الزبير: إذا بلغت السلطان فلعن الله الشافع والمشفع.

وجاء في رفع الإصر: " اختصم إلى إبراهيم بن خزيمة رجلان في شيء فأمر بالكتابة على أحدهما، بتنفيذ الحكم، فتشفع المحكوم عليه بابن

أبي عين إلى الأمير السري بن الحكم، فأرسل إليه السري، أن يتوقف عن الحكم إلى أن يصطلحا، فإن لم يصطلحا أنفذ الحكم، فجلس إبراهيم في منزله وامتنع عن القضاء، فركب إليه السري، وسأله الرجوع فقال: لا أعود إلى ذلك المجلس أبدا، ليس في الحكم شفاعة ".

وجاء في تاريخ قضاة الأندلس للنبهاني: " أن بدرون الصقلبي، كان خادماً أثيراً لديه، وأنه دخل باكياً فقال له الأمير: ما دهاك؟ فروى بدرون قصة طويلة مع قاضيه سليمان بن الأسود النافقي. ثم قال: أفيحسن عندك يا مولاي، إن يركب مني، قاضيك مثل هذا، ومكاني من خدمتك، مكاني فتغير وجه الأمير، وقال له يا بدرون: اخفض عليك فمكانك مني تعرفه، فاسألنا به حوائجك بحبك إليها ما خلا معارضة القاضي فهذا باب قد أغلقناه فلا نجيب إليه أحدا من أبنائنا، ولا من إخواننا، ولا من أبناء عمنا فضلاً عن غيرهم والقاضي أدري بما فعل.

* * *

الضمانة الرابعة:

تحريم الرشوة والهدايا

ليس ثمة أخطر على العدالة من تسرب آفة الرشوة والهدايا إلى جسم القضاء، إذ لو حدث هذا لتحولت نفوس القضاة وضمائرهم إلى مستنقعات خربة تحوي في أعماقها كل جراثيم الظلم، ولغدا حال المظلوم حين يحتمي به كمن يحتمي الرمضاء بالنار.

فالمعروف أن سلطان المال، له بريق مدمر للمبادئ والقيم لدى ضعاف الإيمان، فإذا أتيح له أن ينفذ إلى القضاء عن أحد هذين الطريقين، لكان في ذلك القضاء المبرم على العدالة والإتيان عليها من قواعدها.

ولهذا فقد حرم الإسلام كلاً من الرشوة والهدايا في كل مجال من مجالات العمل في الدولة، وخاصة ما يتعلق منها بالقضاء.

فبالنسبة للرشوة نرى الرسول ﷺ يقول: «**لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم**» وزاد أحمد: «**والرائش**» فالراشي هو الذي يعطي من يعينه على الباطل، والمرتشي الآخذ، والرائش هو الذي يمشي بينهما، أي الوسيط بين الدافع والأخذ، وإن لم يأخذ على وساطته أجراً، فإن أخذ فالعقوبة أكبر ".

ولقد بلغ من حساسية السلف الصالح، إزاء الرشوة في الحكم حداً بالغاً حتى أنهم وصموها بالكفر، فهذا ابن مسعود ﷺ يقول: الرشوة في الحكم كفر، وهي بين الناس سحت.

وسبب تحريم الرشوة في القضاء أن القاضي إذا ارتشى، لا يخلو حاله مع الرشوة من **أحد أمور ثلاثة:**

١- أن يكون ذلك بهدف أن يحكم بغير الحق، وهذا أشر أنواع الرشوة في الحكم، لأنه يؤول بالقاضي إلى أسوأ مصير، فيكون أحد القاضيين الذين توعدهما الرسول ﷺ بالنار، إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق**

فحكم به، وأما اللذان في النار فرجل عرف الحق فجار في حكمه فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار».

٢- أن يأخذ الرشوة ليوقف حكم فإنه أيضاً يكون آثماً لأن إمضاء الحكم واجب عليه فحرم الأخذ على إيقافه.

٣- أن يأخذ الرشوة ليحكم بالحق فإنه أيضاً لم يجز لأنه يأخذ راتباً من الدولة على هذا العمل فلا يحل له أن يأخذ عوضا آخر، لأنه يكون آكلاً لأموال الناس بالباطل وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وحتى لو لم يكن يأخذ أجراً من الدولة لا يجوز له أن يأخذ من أحد المتخاصمين مالاً دون الآخر لأن ذلك يكون رشوة أيضاً. فإن أخذ منهما معا لا يجوز ذلك إلا إذا تحقق جميع الشروط التي ذكرها الإمام الماوردي والتي سلف ذكرها في الضمانة الثانية.

وأما الراشي فإن كان يطلب بما يدفعه أن يحكم له القاضي بغير الحق أو على إيقاف الحكم حرم ذلك عليه وتحل عليه لعنة الله تعالى كما ورد في الحديث الشريف.

وإن كان يبغي بالرشوة الوصول إلى حقه كان ذلك مكروهاً- إن لم يكن حراماً أيضاً لأن فتح مثل هذا الباب فيه شر مستطير حيث يؤدي في النهاية إلى الحرام،إذ يساعد على فساد الذمم ويئون بالحكام إلى الجور في الأحكام أو تعطيها انتظاراً للرشوة، ولذا يقول الرسول ﷺ:**«من ولى عشرة فحكم بينهم بما أحبوا أو بما كرهوا جيء مغلولة يده فإن عدل ولم يرتشو ولم يحف فك الله عنه وإن حكم بغير ما أنزل الله وأرتشى وحابى فيه شدت يساره إلى يمينه ثم رمي به في جهنم فلم يبلغ قعرها في خمسمائة عام»** رواه الحاكم. وعلى ثوبان:**«لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش».**

هذا هو حكم الرشوة في القضاء وغيره سائر الوظائف والأعمال. وأما الهدايا التي تقدم للقضاة والحكام فإن الحكم فيها يختلف باختلاف

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

الأحوال الآتية:

١- إن كان الإهداء ممن لم تجر عادته بالإهداء إلى القاضي قبل تولية القضاء كان ذلك حراماً، إذ تكون الهدية حينذاك رشوة مقنعة ومن ثم يصدق عليها قول الرسول ﷺ:«**هدايا العمال غلول**». وفي رواية:«**هدايا العمال سحت**» وقد غضب عليه الصلاة والسلام غضباً بالغاً حين جاءه أحد عماله على الصدقة قائلاً: هذا لكم وهذا أهدي إليَّ فقد روي أبو حميد الساعدي أن رسول الله ﷺ: " استعمل رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلي، فقام النبي ﷺ على المنبر... فحمد الله وأثني عليه ثم قال:«**ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول هذا لك وهذا لي فهلا جلس في بيت أبه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته**» [(١)].

٢- وإن أهدي إليه من له عادة بالإهداء، إليه قبل تولية القضاء والحكم، فإن كان له قضية حين الإهداء، لم يجز له أن يقبل هديته منعاً للشبهة، فقد روي أن زيد بن ثابت كان يهدي إلى عمر بن الخطاب لبنا، لأنه استقرض منه من بيت المال، فأقرضه مائتي دينار، فأهدى زيد له من عشيته شيئاً من اللبن فلم يقبله، وقال: لعله إنما قدم لنا لما أقرضناه، فلم يقبل ذلك منه حتى قضى زيد دينه.

٣- وإن كان من أهدي إليه، من له عادة بإهدائه قبل القضاء، وليست له قضية وقت الإهداء، فإن كانت أكثر مما كان يهدى إليه، أو أرفع منه لم يجز له قبولها، وإن كانت مثل ما كان يهدى إليه جاز له قبولها [(٢)]، وقال بعض الفقهاء: إن كان المهدي أحد المتخاصمين، لم يجز له قبول الهدية منه مطلقا، وإن كان من غير المتخاصمين، فإن كان من أهل ولايته، لم يقبل منه سواء كان يهدى إليه أو لا يهدي إليه، وإن كان من غير أهل ولايته فالأولى ألا يقبل منه فإن قبل منه جاز [(٣)].

---

(١) انظر: فتح الباري ١٣/١٦٤.
(٢) المجموع ١٩-٣٠.
(٣) المرجع السابق.

هذا وقد قال الإمام الشوكاني: " والظاهر أن الهدايا التي تهدي للقضاة وتحرم هي نوع من الرشوة، لأن المهدي إذا لم يكن للإهداء إلى القاضي قبل ولايته لا يهدي إليه إلا لغرض، وهو إما التقوى به على باطله أو التوصل بهديته له إلى حقه والكل حرام كما تقدم، وأقل الأحوال أن يكون طالباً لقربه من الحاكم، وتعظيمه ونفوذ كلامه، ولا غرض له بذلك إلا التطاول على خصومه أو الأمن من مطالبتهم، فيحتشمه من له عليه ويخافه من لا يخافه قبل ذلك، وهذه الأغراض كلها تؤول إلى ما آلت إليه الرشوة، فليحذر الحاكم المتحفظ لدينه المستعد للوقوف بين يدي ربه من قبول هدايا من أهدى إليه بعد توليه القضاء، فإن للإحسان تأثيراً في طبع الإنسان، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فربما مالت نفسه إلى المهدي إليه ميلاً يورث الميل عن الحق عند عروض المخاصمة بين المهدي، وبين غيره والقاضي لا يشعر بذلك ويظن أنه لم يخرج عن الصواب بسبب ما قد زرعه الإحسان في قلبه.

" ومن هذه الحيثية امتنعت عن قبول الهدايا، بعد دخولي في القضاء ممن كان يهدي إلي قبل الدخول فيه، بل من الأقارب فضلاً عن سائر الناس، فكان في ذلك من المنافع ما لا يتسع المقام لبسطه، أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه ".

* * *

الضمانة الخامسة:

بطلان الحكم بعلم القاضي

يرى الإمام مالك وشريح والشعبي وإسحاق والحنابلة في الرأي الراجح عندهم أنه لا يجوز للحاكم أن يقضى بعلمه في شيء مطلقا سواء في ذلك الحدود وغيرها، وسواء في ذلك أيضاً ما علمه قبل الولاية وبعدها

واستدلوا على ذلك بالآتي:

أ- بقول الرسول ﷺ: «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بغير حقه فلا يأخذه فإنما اقطع له قطعة من النار**». فدل على أنه عليه الصلاة والسلام إنما يقضي بما يسمع لا بما يعلم.

٢- بقوله عليه الصلاة والسلام في قضية الحضرمي والكندي: «**شاهداك أو يمينه ليس لك منه إلا ذاك**».

٣- بما روي عن عمر ﷺ أنه تداعى عنده رجلان فقال له أحدهما: أنت شاهدي، فقال: إن شئتما شهدت ولم أحكم أو أحكم ولا أشهد.

٤- بما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: لو رأيت أحداً على رجل لم أجده حتى تقوم البينة.

٥- قالوا: إن تجويز القضاء بعلم القاضي، يفضي إلي الجور في الحكم، إذ يهيئ الفرصة أمام قضاة السوء أن يحكموا بما اشتهوا ثم يحيلوا ذلك على علمهم [١].

رأي الزيدية وأبي يوسف والشافعية:

وأما الزيدية وأبو يوسف ومحمد بن الحسن في أحد قوليه، والشافعية في الرأي الراجح عندهم، فيرون أنه لا يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه في الحدود التي هي من خالص حق الله تعالى - كالزنى والسرقة

(١) المغني ٥٣/٩، ٥٥ والمحلي ٤٢٧/٦.

والمحاربة والشرب والردة - وأما القضايا المتعلقة بالأموال والقصاص وحد القذف له أن يقضي فيها بعلمه سواء في ذلك ما علمه قبل توليه القضاء أو بعده [1].

رأي الإمام أبي حنيفة:

يرى الإمام أبو حنيفة أنه لا يجوز أن يحكم القاضي بعلمه فيما علمه قبل ولايته القضاء دونما فرق بين الحدود وغيرها، وأما ما علمه بعد ولادته، فإن كان متعلقا بالأموال أو القصاص، جاز له أن يحكم فيه بعلمه، وإن كان متعلقاً بالحدود لم يجز له ذلك.

رأي الظاهرية:

يرى الظاهرية أنه يجب على الحاكم أن يقضي بعلمه في كل شيء سواء في ذلك ما يتعلق بالأموال أو القصاص أو الحدود.

يقول ابن حزم الظاهري " وفرض على الحاكم أن يحكم بعلمه في الدماء والقصاص والأموال والفروج والحدود، وسواء علم ذلك قبل ولايته أو بعد ولايته، وأقوى ما حكم بعلمه لأنه يقين الحق، ثم الإقرار، ثم البينة ".

واستدل على رأيه بالآتي:

١- بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾[2]، فقال: ليس من القسط أن يترك الظالم على ظلمه لا يغيره، وأن يكون الفاسق يعلن الكفر بحضرة الحاكم والإقرار بالظلم والطلاق، ثم يكون الحاكم يقره مع المرأة، ويقر لها بالزوجية والميراث فيظلم أهل الميراث حقهم.

٢- يقول الرسول ﷺ:«**بينتك أو يمينه**»، فقال: ومن البينة التي لا بينة أبين منها صحة علم الحاكم بصحة حقه.

٣- قوله ﷺ:«**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه**».

(١) انظر: شرح الأزهار ٣٢٠/٤، والمحلي ٤٢٧/٦ ومغني المحتاج ج٤، ص ٣٩٨-٣٩٩.

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

فإن لم يغير الحاكم ما رأى من المنكر حتى تأتي البينة على ذلك فقد عصى الرسول ﷺ، فصح إن فرضا عليه أن يغير كل منكر علمه بيده وأن يعطي كل ذي حق حقه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن رأي الظاهرية هنا يتفق مع رأي الإمام أحمد بن حنبل في أحد قوليه، ورأى أبي ثور والمزني وبعض آخر من الفقهاء.

ومن أدلتهم في هذا الشأن أن النبي ﷺ قد قال لهند زوج أبي سفيان: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**». لما شكت إليه بخله وتقتيره عليها وعلى أولادها فحكم لها من غير بينة ولا إقرار لعلمه بصدقها [1].

كما استدلوا بما روي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**لا يمنع أحدكم هيبة الناس أن يقول في حق إذا رآه أو علمه أو سمعه**» [2].

* * *

(١) المغني ٥٣/٩.
(٢) المجموع ١٩١/١٩.

الضمانة السادسة:

إلزام القاضي اتباع منهج معين إزاء الشهود

إن مركز الشهود في أي قضية ليس بالأمر الهين ولا اليسير، فعلى أقوالهم تبنى أحكام القاضي، وهذا يبين مدى خطورة دورهم في القضاء. فهم قضاة غير رسميين بالنسبة للقضايا التي يشهدون فيها، ومن ثم كان شريح يقول للشاهدين: ما أنا دعوتكما ولا أنهاكما أن ترجعا، ولا يقضى على هذا غيركما، وإنما بكما أقضي وبكما أتقي يوم القيامة ".

ولما كان للشهود هذه المكانة في القضاء فإن الإسلام قد أمر القاضي أن يتبع منهجاً معيناً إزاءهم، ويتمثل هذا المنهج في الآتي:

أولاً: الامتناع عن إساءتهم أو تهديدهم لأن ذلك قد يدفع بالكثير منهم إلى الامتناع عن الإدلاء بشهاداتهم فتضيع الحقوق على أربابها.

ولا يقتصر الأمر في الإسلام على الامتناع عن إساءتهم فقط، وإنما الواجب على القاضي أيضاً أن يتلطف في كلامه معهم حتى يهدئ من روعهم، ويذهب ما في نفوسهم من هيبة الموقف، فيدلوا بكل ما لديهم من معلومات تخدم العدالة، وتضيء الطريق إلى الحق، ولذا كان الرسول الكريم يقول: «أكرموا الشهود فإن الله تعالى يحيى بهم الحقوق».

ثانياً: الامتناع عن تلقينهم أي قول يتعلق بالقضية موضوع الشهادة حتى لا يكون هناك مجال للتحريض على الإدلاء بمعلومات كاذبة تشوه معالم الحق، وتطفئ نور العدل وتقوي ساعد الظلم.

ثالثاً: لا يجوز للقاضي أن يقبل شهادة عدو على عدوه، ولا شهادة والد لولده، ولا شهادة جار لنفسه نفعاً، ولا دافع عنها ضرراً، ولا شهادة من أقيم عليه حد أو عرف بالزور، وبمعنى أوضح لا يجوز أن يقبل شهادة واحد اختل فيه أي شرط من الشروط التي اشترطها الفقهاء لصحة الشهادة.

رابعاً: التحقق من عدالتهم إن شك في أمرهم، فقد روي أنه شهد عند

عمر رجل فقال له عمر: لست أعرفك ولا يضرك، إن لا أعرفك ائت بمن يعرفك، فقال رجل من القوم أنا أعرفه، قال: بأي شيء تعرفه؟ قال: بالعدالة والفضل، فقال: هو جارك الأدنى، الذي تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه، قال: لا، قال: فعاملك بالدينار والدرهم، الذين يستدل بهما على الورع؟ قال: لا، قال: فرفيقك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق، قال: لا، قال: لست تعرفه ثم قال للرجل: ائت بمن يعرفك.

خامساً: التفريق بينهم وتدوين شهادة كل منهم على حدة، فإن اتفقت أقوالهم، حكم بشهاداتهم، وإن اختلفت ردها جميعاً، إن كان ذلك في حد أو قصاص على ما سيأتي بيانه في الشهادة.

والهدف من التفريق بينهم، هو محاولة النفوذ إلى أعماقهم، والوقوف على الحقيقة من أقوالهم والعمل على كشف، ما إذا كان بينهم تواطؤ على الكذب وقول الزور، أم أن شهاداتهم تتسم بالصدق وتعبر عن الحق والعدل.

هذا وقد روي أن أول من فرق بين الشهود، هو الإمام علي ﷺ فقد جيء بامرأة شهد عليها أنها بغت، وكانت هذه المرأة يتيمة عند رجل، وكان للرجل امرأة، وكان كثير الغيبة عنها، فشبت اليتيمة، فخافت المرأة أن يتزوجها زوجها، فدعت نسوة حتى أمسكنها، فأخذت عذريتها، بأصبعها، فلما قدم زوجها من غيبته، رمتها المرأة بالفاحشة، وأقامت البينة من جاراتها اللوائي ساعدنها على ذلك، فسأل على المرأة، ألكِ شهود؟ قالت: نعم أولئكن جيراني يشهدون بما أقول، فأحضرهن وأحضر السيف طرحه بين يديه، وفرق بينهن، فأدخل كل امرأة بيتا، فدعا امرأة الرجل فأدارها بكل وجه، فلم تزل على قولها، فردها على البيت الذي كانت فيه، ودعا بإحدى الشهود، وجثا على ركبتيه، وقال: قالت المرأة ما قالت، ورجعت إلى الحق وأعطيتها الأمان وإن لم تصدقيني لأفعلن ولأفعلن ولأفعلن، فقالت: لا والله ما فعلت إلا أنها رأت جمالاً وهيبة، فخافت فساد زوجها، فدعتنا وأمسكناها لها حتى أفضتها بإصبعها، فقال علي: الله أكبر أنا أول من فرق بين الشاهدين، فالزم المرأة حد القذف،

وأمر الرجل أن يطلق المرأة وزوجه اليتيمة، وساق إليها المهر من عنده.

سادساً: أن تكون الشهادة بمحضر المشهود عليه وأن يعرضها على الشاهد بعد تدوينها، فقد جاء في المبسوط جـ١٦، ص ٩٤: وينبغي للقاضي أن يكتب شهادة الشاهدين بمحضر الشهود عليه أو وكيله حتى لا يغير من موضعه لأن الشهود إذا زادوا شيئا أو حرفوه طعن فيه وخاصم...

وينبغي للقاضي أن يعرض كتاب الشهادة بعدما يكتبها على الشاهد حتى يعرف هل زاد شيئاً أو حرفه عن موضعه لأن حجة القضاء شهادة الشهود فيستقصي في الاحتياط فيه وذلك في العرض على الشاهد، بعدما يكتب ولهذا قيل: إذا لم يكن ماهراً في العربية ينبغي له أن يكتب شهادة الشاهد بلفظه ولا يحوله إلى لغة أخرى مخافة الزيادة والنقصان.

* * *

openkandl.com

الضمانة السابعة:

التحذير من كتمان الشهادة

لما كان الشهود هم الذين يضيئون الطريق أمام العدالة لتأخذ مجراها نحو إحقاق الحق وإبطال الباطل وردع المعتدي عن عداوته فقد حرم الإسلام عليهم كتمان الشهادة وحذرهم من ذلك لما يترتب على الكتمان من ضياع الحقوق على أربابها ومن ثم فقد قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾[3].

وإذا كان الإسلام قد حذر من كتمان الشهادة فإنه بالنسبة لشهادة الزور كان أشد تحذيرا فتوعد من يعدلون بالشهادة عن وجهها الصحيح اشد أنواع الوعيد، فقال عليه السلام في إحدى خطبه: «**عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[4]، وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قالوا: نعم، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**» وكان متكئاً فاستوى جالساً ثم قال: «**وقول الزور**» فجعل يكررها حتى قلنا: ليته يسكت، وفي رواية سأل رجل رسول الله ﷺ عن الكبائر فقال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس بغير حق وقول الزور**».

وروي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الشاهد بالزور لا يرفع قدميه من مكانهما حتى تلعنه الملائكة في السماوات والأرض**» فكفى بشاهد الزور إثما أن تعدل جريمته جريمة الإشراك بالله تعالى.

* * *

(١) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٢ من سورة الطلاق.
(٤) الآية ٣٠ من سورة الحج.

الضمانة الثامنة:

التفريق بين المتهمين

وكما عرف القضاء الإسلامي التفريق بين الشهود، فإنه عرف أيضاً التفريق بين المتهمين، منعاً للتواطؤ على الكذب من أجل الإفلات من العقاب.

وكما روي أن أول من فرق بين الشهود هو الإمام علي ﷺ، فقد روي أيضاً أنه هو أول من فرق بين المتهمين، فقد روي أن شاباً شكا إليه نفراً فقال: إن هؤلاء خرجوا مع أبي في سفر، فعادوا، ولم يعد أبي فسألتهم عنه فقالوا: مات، فسألتهم عن ماله، فقالوا: ما ترك شيئاً، وكان معه مال كثير - وترافعنا إلى شريح، فاستحلفهم، وخلى سبيلهم، فدعا علي بالشرط، فوكل بكل رجل رجلين وأوصاهم ألا يمكنوا بعضهم، أن يدنوا من بعض، ولا يسمحوا لأحد أن يكلمهم، ثم دعا كاتبه ودعا أحدهم، فقال: أخبرني عن أبى هذا الفتى أي يوم خرج معكم، وفي أي منزل نزلتم، وكيف كان سيركم وبأي علة مات وكيف أصيب بماله، وسأل عمن غسله ودفنه ومن تولى الصلاة عليه وأين دفن؟ ونحو ذلك والكاتب يكتب.

ثم دعا آخر بعد أن غيب الأول عن مجلسه، فسأله كما سأل صاحبه ثم الآخر، وهكذا، حتى عرف ما عند الجميع فوجد أن كل واحد منهم يخبر بغير ما أخبر به صاحبه فضيق عليهم فأقروا بالقصة فأغرمهم المال وأقاد منهم القتيل " [1].

* * *

(١) القضاء في الإسلام للدكتور على مصطفى مشرفة، ص ١٠٧، ١٠٨.

الضمانة التاسعة:

تحذير المتخاصمين أن يأخذ أي منهما ما لا يستحقه

إذا كان الإسلام قد حذر القاضي من أن يحكم بغير الحق، وحذر الشهود من كتمان الشهادة، ومن شهادة الزور، فإنه في الوقت ذاته قد حذر المتخاصمين أن يأخذ أي منهما مالاً يستحقه، حتى وإن حكم له القاضي، فحكم القاضي في الإسلام لا يسيغ على المحرم صفة الحل، ولا يخول للمحكوم له بغير حقه أن ينتفع بالمحكوم به ركوناً إلى الحكم، إذا كان يعتقد أن هذا الحكم قد جانب الصواب أو جانبه الصواب.

فهذا رسول الله ﷺ يقول: «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما اسمع منه فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار**» (١). متفق عليه. ويقول عليه السلام: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم حرام عليكم**». وروى الترمذي عن وائل بن حجر قال: " جاء رجل من حضرموت ورجل من كنده إلى النبي ﷺ، فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا غلبني، على أرض لي، فقال الكندي: هي أرضي، وفي يدي فليس له فيها حق. فقال النبي ﷺ للحضرمي: «**ألك بينة**» فقال لا، قال: «**فلك يمينه**»، فقال يا رسول الله الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف وليس يتورع من شيء، قال: ليس لك منه إلا ذلك " قال فانطلق الرجل ليحلف له، فقال النبي ﷺ ولم لما أدبر: «**لئن حلف على مال ليأكله ظلماً ليلقين الله تعالى وهو عنه معرض**» ويقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾ (٢).

---

(١) المغني ٩/٦٠.

(٢) الآية ٢٩ من سورة النساء.

الضمانة العاشرة:

اقتران الحكم بأسبابه

المتبع الآن في النظم القضائية الحديثة هو صدور الأحكام مقرونة بأسبابها، أو ما يسمى بحيثيات الحكم.

والهدف من ذكر حيثيات الحكم هو دفع أي شبهة ترد عليه والتنبيه إلى خلوه من التعسف والجور، وأنه يتفق مع نصوص القانون ومبادئ العدالة.

ولا شك أن هذا يغرس في نفوس المتخاصمين الاطمئنان والثقة بالقضاء وبالتالي يهيئ الفرصة للمحكوم عليه أن يطعن في الحكم إذا اكتشف من خلال هذه الأسباب أي عيب من العيوب الموجبة للطعن فيه.

هذا وليس هذا المبدأ بغريب عن فقهنا الإسلامي بل إنه ليتضمن هذا المبدأ منذ زمن بعيد، فقد جاء في المبسوط ١٠٨/١٦: (وينبغي له - أي القاضي - أن يعتذر إلى كل من يخاف، أن يقع في نفسه عليه شيء إذا قضى عليه، وأن يفسر للخصم، ويبين له حتى يعلم أنه قد فهم عنه حجته وقضى عليه بعدما فهم، وبذلك تنتفي عنه تهمة الميل، وينقطع عنه طمع الخصم والقال فيه، ولأنه يصون بذلك الخصوم عن الفتنة والشكاية منه وهو مندوب).

* * *

الضمانة الحادية عشرة:

النهي عن القضاء حالة الغضب

إن الشريعة الإسلامية وهي بصدد وضعها للمبادئ والأسس التي تضمن بها تحقيق العدالة بين المتخاصمين قد وضعت نصب عينيها الحالة النفسية للقاضي، وذلك باعتبار أن الحالة النفسية للشخص ذات تأثير بالغ على أفعاله وتصرفاته، فإن كانت سيئة حدت من نطاق تفكيره فلا يستطيع أن يستخلص النتائج من المقدمات، ولا أن يربط بين الأسباب والمسببات.

ولما كان الغضب من أشد الأمور تأثيراً على النفس، إذ يجعلها في أسوأ حالاتها، فإن الإسلام قد نهى عن القضاء حالة الغضب، حيث لا يستطيع القاضي حينذاك أن يتبين وجه الصواب من الخطأ، فتصدر أحكامه عشوائية هوجاء، لفقده القدرة على الفهم الصحيح والإدراك السليم، وعدم تمكنه من التفكير المتزن الهادئ الرزين خاصة، إن كان الغضب قد بلغ عنده أشده، فإنه إذ ذاك يكون قريب الشبه بالمجنون، ومن يكون هذا حاله فكيف يقبل قضاؤه أو تصح أحكامه!

لذا يقول الرسول الكريم: «**لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان**». وفي رواية: «**لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان**». وجاء في صحيح البخاري: «**لا يقضي حكم بين اثنين وهو غضبان**».

ومما ورد في التحذير من القضاء حالة الغضب أيضاً ما جاء في كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري: إياك والغضب والضجر والتأذي والنكر عند الخصومة.

هذا وقد قاس الفقهاء على الغضب في المنع من القضاء كل ما له تأثير سيئ على نفسية القاضي، وكل ما يأخذ لبه، ويستحوذ على تفكيره كالحزن الشديد والألم المفرط؛ لأن العلة مشتركة في الجميع، وهي تشويش الفكر واضطراب الذهن، جاء في فتح الباري ١٣/١٣٧ (لما نهي عن الحكم حالة الغضب فهم منه أن الحكم لا يكون إلا في حالة

استقامة الفكر فكانت علة النهي المعني المشترك وهو تغير الفكر).

وجاء في نفس المرجع أيضاً: (النهي عن الحكم حالة الغضب لما يحصل بسببه الذي يختل به النظر فلا يحصل استبقاء الحكم... وعداه الفقهاء بهذا المعنى إلى كل ما يحمل به تغير الفكر كالجوع والعطش المفرطين... وسائر ما يتعلق به القلب تعلقاً يشغله عن استيفاء النظر... وكانت الحكمة في الاقتصار على ذكر الغضب لاستيلائه على النفس وصعوبة مقاومته بخلاف غيره).

ولكن ما حكم قضاء القاضي في حالة الغضب؟ هل يكون صحيحاً أم لا؟

هناك ثلاثة آراء في حكم هذه المسألة:

الرأي الأول: وهو لبعض الحنابلة،ويتمثل في بطلان القضاء وعدم صحته، لأنه منهي عنه، والنهي يقتضي الفساد [١].

الرأي الثاني: وهو لبعض الفقهاء، ويتمثل في أنه إن كان الغضب قبل أن يتضح له الحكم في المسألة، وجب أن يمتنع عن القضاء، وإن عرض الغضب بعد أن اتضح له الحكم جاز له ألاَّ يقضي وصح قضاؤه؛ لأن الحق قد استبان قبل الغضب فلا يؤثر الغضب فيه [٢].

الرأي الثالث: وهو لجمهور الفقهاء، ويتمثل في أنه إن كان الغضب من الشدة بحيث لا يستطيع القاضي معه أن يميز بين الحق والباطل لا يكون القضاء صحيحاً، وإن كان الغضب خفيفاً كان القضاء صحيحاً ولكن مع الكراهة، ودليل صحة القضاء مع الغضب العادي، ما روي أن النبي ﷺ قال للزبير:«**اسق ثم أرسل الماء إلى جارك**»، فقال الأنصاري أن كان ابن عمتك، فغضب الرسول ﷺ ثم قال للزبير:«**اسق ثم أرسل الماء حتى يبلغ الجدر**». فحكم ﷺ في حال غضبه.

هذا وقد جاء في الروض النضير (وظاهر كلام الجمهور حمله على الكراهة نظراً إلى العلة المستنبطة لذلك وهو أنه لما رتب النهي على

(١) انظر: المغني ٤٩/٩ -٥٠، والروض المربع ٣٨٩/٣.
(٢) المغني ٥٠/٩.

الغضب بمجرده لا مناسبة فيه لمنع الحكم وإنما ذلك لما هو مظنة لحصوله وهو تشويش الفكر وشغل القلب عن استيفاء ما يجب من النظر، ومثل هذا قد يؤدي إلى الخطأ في الحكم، ولكنه ليس بمطرد مع كل غضب ولا مع كل إنسان، فكذا كان مكروهاً فقط). وهذا الكلام يجب أن يحمل على الغضب العادي الذي لا يخرج القاضي عن سمته الطبيعي.

هذا وإن مراعاة الحالة النفسية للقاضي لتعد من مفاخر القضاء الإسلامي، ولا نظن أن أي نظام قضائي آخر قد راعى هذا الجانب مثلما راعاه الإسلام.

* * *

obeikandl.com

الضمانة الثانية عشرة:

المتهم بريء حتى تثبت إدانته

يفخر رجال القانون الوضعي بهذه القاعدة، ويعتبرونها من أهم ضمانات العدالة، فبمقتضى هذه القاعدة لا يعتبر الشخص مذنباً، بمجرد الاتهام، وإنما لابد في ذلك من أن يسند الحكم إلى الأدلة التي تثبت إدانته وإلا فكثيراً ما يكون الاتهام مبعثه أمور كيدية أو مجرد الشك الذي يستند إلى وشايات مغرضة أو شبهات كاذبة. فلو اعتبر الشخص مذنباً بمجرد الاتهام لوقع تحت طائلة العقاب كثير من الناس دون ذنب أو جريرة.

والحق أن هذه القاعدة هي في جوهرها شرعية، فالأصوليون يقولون (الأصل براءة الذمة) أي أن الإنسان بريء مما ينسب إليه ما لم يثبت العكس.

وقد بنى الأصوليون على هذه القاعدة أن القول قول المدعي عليه لموافقته الأصل، واليمين على من أنكر لدعواه ما خالف الأصل [1]، وقد ورد الحديث الشريف مبيناً هذا المعنى إذ يقول عليه السلام: **«البينة على المدعي واليمين على من أنكر»**.

* * *

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي، ص ٥٣ الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٥٩.

الضمانة الثالثة عشرة:

بطلان حكم القاضي لنفسه أو لأحد أصوله أو فروعه

المتفق عليه بين الفقهاء أنه لا يجوز للقاضي أن يحكم لنفسه ضماناً للعدالة وابتعاداً عن التهمة، فإن حكم لنفسه كان حكمه باطلاً ووجب على الحاكم نقضه.

فإن حدث نزاع بينه وبين أحد من الناس كان المختص بالفصل في النزاع أي قاض آخر غيره، وليس هذا الحكم قاصراً على القضاة، وإنما هو شامل لكل الحكام والولاة إذ لا يجوز لأي منهم أن يحكم لنفسه، فإن عمر ﷺ قد حاكم أبي بن كعب إلى زيد بن ثابت، وحاكم رجلاً عراقياً إلى شريح، وحاكم اليهودي إلى شريح، أيضاً وحاكم عثمان طلحة إلى جبير بن مطعم.

وكما لا يجوز للقاضي أن يحكم لنفسه باتفاق الفقهاء لا يجوز له أن يحكم لأحد أصوله ولا لأحد فروعه ولا لأحد شركائه في المال المشترك بينهما عند الجمهور، إذ لا تقبل شهادته لأي واحد منهم، ولأن القضاء لنفسه فيه نفس المعنى [1].

* * *

(١) المغني ١٠٧/٩، ومعنى المحتاج ٣٩٣/٤، والأشباه والنظائر لابن نجيم ٢٢٧.

obeikandl.com

الضمانة الرابعة عشرة:

تقرير حق المتهم في الدفاع عن نفسه

إن من أهم المبادئ المقررة لتحقيق العدالة بين المتخاصمين هو تخويل المتهم الحق في الدفاع عن نفسه أما بنفسه أو بوكيله [١].

وعلى ذلك فإنه إن كان الخصم موجودا في محل ولاية القاضي وغير متخف وصدر الحكم عليه دون إعلانه بموعد الجلسة كان الحكم باطلاً باتفاق الفقهاء؛ إذ الواجب على القاضي إعلان الخصم للحضور، فإن لم يحضر بعث إليه من الشرطة من يحضره.

" وقد فصل الشافعي آداب استدعاء المتهم بما يحفظ آدمية الإنسان وآداب الشرع، وحياء أهل المروءة، فقال في " الأم ": إن علم له مكاناً - أي المتهم - أمر بالهجوم عليه فبعث خصيانا أو غلمانا لم يبلغوا الحلم وثقات من النساء معهم ذو عدل من الرجال فيدخل النساء والصبيان فإن حصلوا في صحن الدار دخل الرجال ويؤمر الخصيان بالتفتيش ويتفقد النساء النساء فإن ظفروا به أحضروه " [٢].

والأصل في مشروعية تخويل المتهم حق الدفاع عن نفسه ما رواه أبو داود عن عمر بن عون... عن علي عليه السلام قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً فقلت: يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء؟ فقال:«**أن الله يهدي قلبك ويثبت لسانك فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء**» [٣].

فالرسول ﷺ قد نهى عن إصدار الحكم في القضية دون سماع أقوال

---

(١) انظر: الروض النضير ١١٥/٤، والمغني ١٠٩/٩، وشرح الأزهار ١٢٠/٤، ومغني المحتاج ٤٠٩/٤، والمحلي ٣٦٦/٦ وفتح الباري ١٧١/٣، والبديع ٣٩١٧/٨، وسبل السلام.

(٢) المجموع ١٧١/١٩ نقلاً عن الأم.

(٣) سنن أبي داود ٣٠١/٣.

الخصم الثاني، ومقتضى هذا أنه لو أصدر القاضي الحكم قبل سماع أقوال الآخر يكون الحكم باطلاً، لأن الأصل في النهي أنه يفيد فساد المنهي عنه.

وهذا كله فيما إذا كان المدعي عليه موجوداً في محل ولاية القاضي، أما لو كان المدعى عليه غائباً - أي ليس موجوداً في محل ولاية القاضي - فقد اختلف الفقهاء في شأنه، فمنهم من قال: يمنع القضاء عليه حال غيبته حتى يحضر، لأن لفظ الحديث عام يتناول الحاضر والغائب ومنهم من أجاز إصدار الحكم عليه حال غيبته حتى لا تضيع الحقوق على أربابها.

* * *

obeikandl.com

الضمانة الخامسة عشرة:

نقض الحكم المخالف للنص أو الإجماع

من بين ما قررته الشريعة من قواعد وأحكام لحماية العدالة وضمان تحقيقها في القضاء الإسلامي، هو نقض الحكم الذي يتبين خطؤه فالحكم الخاطئ في الإسلام، لا قداسة له؛ لأن معنى كونه خاطئاً أنه يحمل في طياته ظلماً لأحد المتخاصمين، وقد جاء الإسلام بالقضاء على الظلم حتى وإن صدر في صورة قضاء خاطئ؛ إذ يقول الرسول ﷺ:«**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» [1]. ويقول عمر ﷺ في الرسالة التي بعث بها إلى موسى الأشعري في القضاء«**ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل**».

هذا ويعتبر الحكم خاطئاً ويجب نقضه إن خالف الكتاب أو السنة أو الإجماع، فإن وجد نص صريح قاطع في الدلالة على الحكم أو ثبت بشأنه الإجماع لا يجوز مخالفته بناء على أي اجتهاد، فمن القواعد الأصولية المتفق عليها أنه لا اجتهاد مع النص، وقد استند الأصوليون والفقهاء في ذلك إلى ما روي عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ حين أرسله إلى اليمن قاضيا قال له:«**قال كيف تحكم إن عرض لك قضاء؟**»، قال: اقضي بكتاب الله ﷻ، قال:«**فإن لم تجد في كتاب الله**»، قال: أقضى بسنة رسول الله ﷺ، قال:«**فإن لم تجد في سنة رسول الله**»، قال: أجتهد رأي لا آلو، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال:«**الحمد الله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله**». فيستفاد من الحديث أن اللجوء إلى الاجتهاد، إنما يكون إذا لم يكن هناك نص من كتاب أو سنة.

ثم أنه ثبت أن عمر ﷺ قد رجع عن المفاضلة بين الأصابع في الدية حين بلغه قول النبي ﷺ:«**في الإصبع عشر من الإبل**»، كما رجع عن حكمه في رجم الحامل لما يبين له علي ﷺ إن ذلك مخالف للسنة.

(١) فتح الباري ٣١٧/١٣.

ولكن ما الحكم لو كان حكم القاضي مبيناً على اجتهاد لم يخالف فيه نصاً ولا إجماعاً، هل يجوز للقاضي الذي أصدره أن ينقضه إذا تغير اجتهاده وهل يجوز لغيره من القضاة أن ينقضه باجتهاده أم لا؟

المتفق عليه بين الفقهاء أن الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد فلا يجوز للقاضي أن ينقض حكمه المبني على الاجتهاد إذا تغير اجتهاده، فقد روي أن عمر قد حكم في المسألة المشتركة بإسقاط الإخوة لأبوين، ثم عاد وشرك بينهم في قضية أخرى، ولم ينقض حكمه الأول وإنما قال: تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي، وثبت أيضا أنه ﷺ قد قضى في الحد بقضايا مختلفة ولم يرد الأولى.

وهذا فيما إذا تغير اجتهاده بعد الحكم، إما إذا تغير اجتهاده قبل الحكم، فالواجب عليه أن يحكم بما تغير إليه اجتهاده ولا يجوز له أن يحكم باجتهاده الأول لأنه إذا حكم باجتهاده الأول يكون قد حكم بما يعتقد بطلانه.

وكذا لا يجوز للقاضي أن ينقض باجتهاده حكم قاض آخر مبني على اجتهاده لم يخالف فيه نصا ولا إجماعا، فإن أبا بكر حكم في مسائل باجتهاده وخالفه عمر ولم ينقض أحكامه، كما خالف علي عمر في اجتهاده ولم ينقض أحكامه.

والسبب في منع نقض الحكم المبنى على اجتهاد باجتهاد آخر، أنه لو أبيح ذلك لأدى إلى نقض الحكم بمثله هذا يؤدي إلى عدم ثبوت مثل هذه الأحكام لأن الحكم الثاني يخالف الذي قبله والثالث يخالف الثاني فلا يثبت حكم [1].

* * *

(١) المغني ٥٧/٩.

الضمانة السادسة عشرة:

التعويض عن الضرر الناشئ عن الخطأ في الحكم ومسؤولية المتسبب فيه

سبق أن بينا أن الشريعة قد أوجبت نقض الحكم المخالف للكتاب أو السنة أو الإجماع ضماناً لتحقيق العدالة بين المتخاصمين والمضي بما على الطريق الصحيح.

والذي يعنينا هنا بيان الشريعة لم تكتف بنقض الحكم وفقط، وإنما أوجبت تعويض المحكوم عليه، عما ألحقه من ضرر بسبب هذا الحكم، كما أوجبت مسؤولية القاضي إن كان قد تعمد الجور في الحكم، وكذا أوجبت مسؤولية من تعمد تضليل القاضي إن كان الخطأ قد حدث بسبب هذا التضليل.

ولبيان ما تقدم نقول:

إن كان الخطأ في الحكم قد عرف قبل التنفيذ اعتبر الحكم كأن لم يكن حيث يجب إلغاؤه ولا يجوز تنفيذه.

وإن كان الخطأ في الحكم قد عرف بعد تنفيذه فإما أن يكون هذا الحكم متعلقاً بالعقوبات البدينة، وإما أن يكون متعلقا بغيرها من عقود وفسوخ وأموال.

أ- فإن كان الحكم متعلقاً بالعقوبات البدنية وتعمد القاضي الجور فيه وجب القصاص منه، وذلك كما لو حكم بالقتل ظلماً على شخص ما بينما الأدلة التي بين يديه تثبت براءة هذا الشخص، فحينئذ يجب أن يقتص من القاضي، إلا إذا عفا عنه أهل المحكوم عليه سواء كان العفو على الدية أو بدون الدية فإن كان العفو على الدية وجب أن تكون الدية في مال القاضي.

وإن كان الجور في الحكم، قد نشأ بسبب تضليل للقاضي كما لو شهدوا لديه زوراً، وصدر الحكم بناء على تلك الشهادة، ولم يحصل

تقصير من القاضي فإن المتسبب في التضليل يكون هو المسؤول جنائياً عما يترتب على هذا الحكم الجائر من أضرار تلحق بالمحكوم عليه.

وان كان الجور في الحكم قد حدث نتيجة خطأ عادي من القاضي فلا يسال القاضي عن ذلك جنائيا وهذا مع ما قدمناه سالفاً من ثبوت حق المحكوم عليه في التعويض عما أصابه من أضرار بسبب تنفيذ هذا الحكم الخاطئ.

والذي نراه هنا أن حق المحكوم عليه في التعويض عن الضرر يكون في مال الدولة ولا نميل إلى الرأي القائل بإيجاب أن يكون الضمان في مال عاقلة القاضي.

لأن القاضي قد يخطئ كثيراً، وإذا حملنا عاقلته مغبة كل أخطائه العادية لترتب على ذلك أضرار فادحة بهم دون أن يرتكبوا جريمة أو إثماً، إذ قد تأتي ضمانات أخطائه على كل ما يملكون من مال. أما اعتبار التعويض من مال الدولة، فذلك لأن القاضي يعمل لديها فوجب أن تكون مسؤولة عن أخطائه العادية مسؤولية المتبوع عن تابعه.

ب- وإذا كان الحكم الخاطئ غير متعلق بالعقوبات، فإن كان المحكوم به مالا وجب أخذه من المحكوم له، إن كان مازال موجوداً، وإعادته إلى المحكوم عليه، فإن كان المال المحكوم به قد هلك أو استهلك وجب أخذ قيمته إن كان قيمياً ومثله إن كان مثلياً، وذلك إذا كان المحكوم له ميسوراً، فإن كان المحكوم له معسراً وجب الضمان في مال القاضي إن كان قد تعمد الجور في الحكم مع إيجاب عزله أيضاً لسقوط عدالته، وإن لم يكن قد تعمد الجور في الحكم كان الضمان في مال الدولة.

وإن كان الحكم لا يتعلق بعقوبة بدنية، ولا بأموال اكتفى بنقض الحكم وتصحيحه، وذلك كما لو حكم القاضي بالطلاق ثم تبين انه أخطأ في الحكم فإنه يجب إبطال الحكم واعتبار الطلاق كأن لم يكن.

* * *

الأساس السابع:

الشورى في الإسلام

تعريفها:

الشورى والمشاورة والمشورة: مصادر للفعل شاور وتدل على طلب رأي الغير [١].

هذا من حيث اللغة: وأما في الاصطلاح الفقهي: فهي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها [٢] والتي لم يرد بشأنها نص صريح في الكتاب أو السنة.

أهميتها في الإسلام:

للشورى في الإسلام أهمية بالغة فهي " الطريق الصحيح لمعرفة أصوب الآراء، والوصول إلى الحقيقة وجلاء الأمر، ولأن العقول كالمصابيح إذا اجتمعت ازداد النور ووضح السبيل [٣].

وهي مظهر من مظاهر المساواة وحرية الرأي فيها وهي الطريقة إلى وحدة الأمة الإسلامية، ووحدة المشاعر الجماعية من خلال عرض المشكلات العامة وتبادل الرأي [٤].

كما أن بها عصمة لولي الأمر من الإقدام على أمور تضر الأمة، وقد لا يشعر هو بضررها ولا سبيل إلى إصلاح هذا الضرر بعد وقوعه [٥].

وكذلك فإن في المشاورة تذكير للأمة بأنها صاحبة السلطان وتذكير

---

(١) انظر: الشورى وأثرها في الديمقراطية للدكتور عبدالحميد إسماعيل الأنصاري ص ٣.
(٢) المرجع السابق ص ٤.
(٣) المرجع السابق ص ٥، ٦. نقلاً عن الشيخ عبداللطيف محمود عبدالفتاح: مجلة منبر الإسلام.
(٤) المرجع السابق ص ٦، نقلاً عن الأستاذ عباس حلمي إسماعيل: مجلة الأزهر مارس ٧٤.
(٥) المرجع السابق ص ٧، نقلاً عن الأستاذ عبدالكريم الخطيب: مجلة الوعي الإسلامي العدد ٦٩ أكتوبر ١٩٧٠.

لرئيس الدولة بأنه وكيل عنها في مباشرة سلطاته [١].

ومن ثم، فالشورى في الإسلام، هي طوق النجاة للأمة إن أحسنت استعمالها، والتزمت في تطبيقها منهج الله، ولكن لو أساءت الأمة استعمالها كان مصيرها التمزق والتشرزم والهوان وشاع فيها كل ألوان الفساد.

مدى العلاقة بين الشورى وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

العلاقة بين الشورى وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام جد وثيقة، فهي صورة من صورها و لون من ألوانها إذا كانت على منهج الله لا تخرج عن كونها أمراً بمعروف ونهياً عن منكر.

وإذا كانت الشورى في الإسلام، لا تنبثق إلا من معين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان مقتضى هذا أن يصدق عليها جل النصوص الواردة بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ثم فهذا يقتضينا أن نستعرض بعض النصوص الواردة بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم نستعرض بعدها النصوص بشأن الشورى، لتكون هذه وتلك نصب أعيننا ونحن نصبو إلى نظام الشورى في الإسلام، وبيان مدى أهميتها ليتضح لنا إلى أي مدى يكون التمسك بكل من الشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببا في خيرية الأمة وقوتها وسؤددها واكتسابها، رضاء الله تعالى والى أي مدى تنحدر، ويحيق بها الهوان ويحل عليها غضب الله إذا تهاونت في أي منها.

ومن النصوص الواردة بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يأتي:

١- يقول الله ﷻ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٢].

٢- ويقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

(١) المرجع السابق ص ٧.
(٢) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران.

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[1].

٣- ويقول: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

٤- ويقول الله في معرض ذكر جانب من جوانب الصفات الحميدة للمؤمنين الصادقين: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

٥- ويقول في بيان أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون للنجاة من عذاب الله ﷻ يقول ﷻ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[4].

٦- ويقول الله ﷻ على لسان لقمان عليه السلام في وصيته لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[5].

٧- ويقول أيضا في معرض بيان من يستحقون نصر الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[6].

٨- ويقول الرسول ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٧٣ من سورة التوبة.
(٣) الآية ١١٢ من سورة التوبة.
(٤) الآية ١٦٥ من سورة الأعراف.
(٥) الآية ١٧ من سورة لقمان.
(٦) الآيتان ٤٠، ٤٢ من سورة الحج.

بالمعروف وينهى عن المنكر» [١].

٩- ويقول:«**إياكم والجلوس على الطرقات**»، قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، قال:«**إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه**»، قالوا: وما حقه؟ قال:«**غض البصر- ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» [٢].

١٠- ويقول:«**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» [٣].

١١- ويقول:«**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**» [٤].

١٢- ويقول:«**إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له أنك ظالم فقد تودع منهم**» [٥].

١٣- ويقول:«**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» [٦].

١٤- وروي عن أبي بكر ﷺ أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [٧]، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول:«**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب**» [٨].

---

(١) من كتاب " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس ص ٢٤ نقلاً عن سنن الترمذي ٣٢٢/٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤١/١٤-١٤٢.

(٣) صحيح مسلم.

(٤) سنن الترمذي ٤٦٨/٤.

(٥) من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس ص ٥٦ وقال في الهامش رواه الإمام أحمد في مسنده والطبراني في المعجم الكبير والحاكم في المستردك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رواه الطبراني في المعجم الأوسط... وهو صحيح.

(٦) المرجع السابق نقلاً عن سنن أبي داود ٣٤٧/٢.

(٧) الآية ١٠٥ من سورة المائدة.

(٨) سنن أبي داود ٤٣٦/٢.

١٥- وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها فإنا ننقبها من أسفلها فنستقي فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً وإن تركوهم غرقوا جميعاً**» (١).

١٦- وروي عن الشرطة أنها جاءت لعمر بن عبدالعزيز بجماعة قد شربوا الخمر وكان معهم رجل جالس لم يشربها، بل كان صائماً، فأمر بجلدهم جميعا، فقالت الشرطة: يا أمير المؤمنين إن فلاناً لم يكن يشرب الخمر معهم إنما كان صائما، فقال رحمه الله ابدؤوا به فاجلدوه ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (٢).

ب- النصوص الواردة في الشورى:

النصوص الواردة بشأن الشورى في الإسلام منها ما يأتي:

١- يقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٣).

٢- ويقول: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٤).

٣- ويقول الرسول ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قالوا: لمن يا رسول الله؟

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٦١ نقلاً عن سنن الترمذي ٤/٤٧٠.
(٢) الآية ١٤٠ من سورة النساء.
(٣) الآية ١٥٩ من سورة النساء.
(٤) الآيات ٣٦-٣٨ من سورة الشورى.

قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم».

٤- ويقول: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالمنكر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله» (١).

٥- ويقول: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، وإن أراد له غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه».

٦- وقال ﷺ: «المستشار مؤتمن».

٧- التطبيق العملي للرسول ﷺ للشورى من الوقائع التي لم يرد بشأنها وحي.

* * *

طبيعة نظام الشورى في الإسلام

الشورى في الإسلام تتسم بطابع خاص تنفرد به عن جميع النظم النيابية في الديمقراطيات المعاصرة، وذلك لأن هذه الديمقراطيات لا تقوم إلا على نظام تعدد الأحزاب، ومن ثم فالتعبير عن الرأي في هذه النظم من أي أحد إنما يكون في إطار فلسفة الحزب الذي ينتمي إليه، وليس له أن يتجاوز نطاق أفكار حزبه، ولا أن يخرج على برامجه.

ولذا فكثيراً ما نرى في ظل هذه النظم التعصب من الأعضاء لأحزابها بالباطل على حساب الحقيقة وإهدار مصلحة شعوبها مادام ذلك يحقق انتصارًا للحزب على غيره.

أما نظام الشورى في الإسلام، فإنه يقوم بالدرجة الأولى على النصيحة الخالصة لوجه الله تعالى، دون أن تشوبها شائبة من رياء، أو نفاق أو سمعة أو انتصار لحزب معين بالباطل على غيره، ودون أن تزلف لحاكم لقاء منصب معين أو أي عرض زائف من أعراض الدنيا على حساب الشريعة أو مصلحة المسلمين.

(١) ملامح الشورى ص ٧٣، نقلاً عن البخاري.

فالشورى في الإسلام إنما هي تعبير عن آراء نقية لا يخشى أربابها في الحق لومة لائم ولا يكبل ألسنتها كبت ولا قهر ولا تهديد ولا إرهاب لأنهم يعلمون أن كلمة الحق، إنما هي إعلاء لكلمة الله وجهاد في سبيل الله.

والشورى في الإسلام إنما هي ثمار وأفكار ناضجة نظيفة وعطاء عقول واعية رشيدة غاية الكل فيها واحدة لا غايات متباينة، كما هو الحال في النظم الديمقراطية المعاصرة.

والشورى في الإسلام: إنما هي تعاون بين الجميع في سبيل الوصول إلى الرأي الأمثل انطلاقاً من وحي الكتاب والسنة، وتحقيقاً لمبادئ الشريعة العامة لا صراعاً وتنابذا وتخاصما ومهاترات، وليًّا لأعناق الحقيقة كما هو الحالي في كثير من النظم النيابية المعاصرة.

والشورى في الإسلام: الكل فيها يعمل تحت لواء حزب واحد هو حزب الله امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٣).

لا أحزاب متعددة لها أفكار متباينة وانتماءات مختلفة تؤدي إلى تمزق الأمة والقضاء على وحدتها، وتشتيت فكرها كما هو الحال في النظم الديمقراطية المعاصرة.

وإذا كان الإخلاص في النصح لوجه الله تعالى هو جوهر الشورى في الإسلام، فإن ذلك يرفع من مكانتها إلى آفاق عليا من السمو والنقاء بحيث لا يمكن أن يدانيها أي نظام نيابي معاصر، ففي النظم النيابية المعاصرة كثيراً ما يفتقد الإخلاص في النصح، بسبب الطموحات الحزبية

(١) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.
(٣) الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

والصراعات بينهما، وقد يعاني العضو في تلك النظم النيابية صراعاً داخليًّا بين نصرة الحزب ونصرة الحق إن كان حزبه على غير الحق وقد يتخلى هو عن الحق حينئذ محافظة على مركزه في الحزب رغباً ورهباً.

ومن ثم كان للنصيحة المخلصة منزلة عظيمة في منهاج الله منذ أن بعث الله الرسل والأنبياء إلى عباده ووصف القرآن الكريم مهمة الأنبياء بالنصيحة(١) فنوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وهود عليه السلام: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (٣).

وصالح عليه السلام: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (٤).

وشعيب عليه السلام: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ (٥).

وهود عليه السلام يقول أيضاً: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦).

وقد جعل الله سبحانه وتعالى النصح إحساناً من الذين منعهم العذر عن غزوة تبوك: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٧).

لا نقول ذلك من منطلق عاطفة لا يؤازرها الفكر، وإنما نقوله وحجتنا بين أيدينا لمن يريد أن يذكر، وإلا فهل ينكر أحد أن العناد واللجاج والمكابرة من السمات الأساسية في أي نظام نيابي يقوم على الحزبية،

(١) ملامح الشورى لعدنان النحوي ص ٦٨.
(٢) الآية ٦٢ من سورة الأعراف.
(٣) الآية ٦٨ من سورة الأعراف
(٤) الآية ٧٩ من سورة الأعراف.
(٥) الآية ٩٣ من سورة الأعراف.
(٦) الآية ٣٤ من سورة هود.
(٧) الآية ٩١ من سورة التوبة.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف لا تضيع الحقيقة وسط هذا الزحام من المغالطات، وإذا ضاعت الحقيقة فلا ينتظر بعد ذلك أي فلاح.

وإذا جاز لدول الغرب أن تتحدث في محراب الديمقراطية القائمة على نظام حزبي، ويمنون على العالم بها باعتبار أنها من بنات أفكارهم، فهل يجوز من الدول الإسلامية أن تجاري تلك الدول في تقديسها لهذه النظم؟

وإذا كان لهذه الدول شيء من العذر في تمسكها بهذه النظم النيابية باعتبار أنهم لا يعرفون شيئاً عن فكر الإسلام وفلسفته في هذا المجال وغيره، وحتى لو كانوا يعرفون منهج الإسلام في هذا الشأن، فإن اختلاف العقيدة لابد وأن يقف حجر عثرة دون إبرازه وتطبيقه عندهم، حتى لا يقروا للإسلام بهذه الميزة حسداً من عند أنفسهم.

نقول: إن جاز هذا من الدول الغربية وغيرها، فكيف يقبل من المسلمين أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فيهدروا تعاليم الإسلام في هذا المجال ويعكفوا على تلك النظم وكأنها من وحي السماء.

إن الكثيرين - للأسف البالغ - يتصورن أن النظم النيابية القائمة على نظام حزبي، هي وحدها صمام الأمان للحاكم حتى لا يفرط على الأمة، أو أن يطغى وإن انعدام هذه النظم يخول أكبر فرصة ممكنة للدكتاتورية، وافتراس الشعوب، وهذا التصور قد تغلغل في أعماق هؤلاء لأنهم في غفلة ساهون عن تعاليم دينهم، ومن ثم فقد اعتبروا هذه النظم هي نهاية المطاف في الفكر السياسي على مستوى العالم أجمع، حتى إن مجرد نقدها يعتبر جريمة لا تغتفر في حق الإنسانية جمعاء، ولو أن المسلمين تعمقوا مبادئ دينهم واتخذوا السلف الصالح في صدر الإسلام قدوة لهم لأتوا ما يشبه المعجزات ولبهروا العالم كله في هذا المضمار وغيره.

* * *

الشورى في الإسلام ليس لها شكل قانوني معين

أجل إن الإسلام لم يهتم برسم شكل قانوني معين للشورى، ومع ذلك فإنه في ذات الوقت لا يمانع أي شكل قانوني تتحقق من خلاله على الوجه الأكمل.

وأما الشكل بدون الحقيقة فالإسلام يمقته ويلفظه؛ لأنه يمثل خداعا للشعوب والإسلام بريء من الخداع، ولقد رأينا في حياتنا المعاصرة أن الشكل القانوني لنظام نيابي معين قد يخرج في أبدع صوره وأزهى ألوانه بحيث يضارع أي نظام نيابي آخر في ارقي الدول تقدمًا، وحضارة بل ويزيد عليه وفي نفس الوقت تكون الديمقراطية في أسوأ محنة تمر بها وتكون الدكتاتورية متمثلة في أبشع صورها.

يقول الأستاذ ظافر القاسمي [١]: إن آخر ما انتهت إليه أراء علماء الحقوق الدستورية في العالم الغربي: هو أنه نظام قائم على الأخلاق أخلاق الحاكمين و المحكومين على السواء، وأن هذه الأخلاق السياسية هي وحدها التي تجعل من النظام ناجحاً أو مخفقاً.

أما النصوص، وأما المنظمات والمؤسسات والهيئات وغيرها مما يمكن أن يرافق البرلمان أو الرئاسة أو غيرها فلا يمكن أن يكون لها أي أثر في تقويم الاعوجاج إذا لم تصبها أخلاق سياسية تدرك معنى الحق والواجب ".

ويقول أيضاً: " فليس مهما في نظر العدل والحق أن يكون في نظام الحكم برلمان أو لا يكون، ولا أن يكون هناك هيئة للمراقبة، أو لا تكون، بل المهم أن يكون الحكم ثورياً، قام برضاء الأكثرية، وتأييدها و انصاع فيه رأس الحكم إلى ملاحظة أي واحد من الرعية أو نقده " [٢].

وإذا كان مفكرو الغرب يقولون: إن النصوص والمؤسسات والهيئات وغيرها لا يمكن أن يكون لها أي أثر في تقويم الاعوجاج إذا لم تصحبها أخلاق سياسية تدرك معنى الحق والواجب، فإنا نقول: إن هذه الأمور لا أثر لها في تقويم الإعوجاج، إذا لم تصحبها أخلاق إسلامية، تدرك معنى الحق والواجب، لا أخلاق سياسية كما يقولون، لأن السياسة إذا تجردت من العقيدة الإيمانية تكون في الوقت ذاته متجردة من الأخلاق.

* * *

(١) انظر: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ص ٨٣.
(٢) المرجع السابق.

الشورى في الإسلام هي أمانة ومسؤولية

أجل إن الشورى في الإسلام أمانة في عنق كل من الحاكم والمحكوم ومسؤولية أمام الله تعالى لقول الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته..».

أ- هي أمانة في عنق الحاكم:

فالواجب علية صيانتها ومراعاة أحكام الله فيها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ (١).

١- ومن ثم فلا يجوز أن يعطلها وينفرد بالتصرف في الحكم دون استشارة ذوى الرأي في الأمة لأن الله تعالى قد أمر الرسول ﷺ بالشورى، رغم استغنائه بالوحي عنها، ورغم أن الصحابة كانوا رهن إشارته وطوع بنانه من منطلق الحب الخالص له، فأولى أن يلتزم بها كل حاكم، لأن الله تعالى جعل الشورى صفة إيمانية أي من خصائص المؤمنين، فليس لحاكم مؤمن أن يتخلى عنها، وهذا ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم، فالتزموا بها في الحكم لا باعتبارها أمراً كمالياً، ولكن باعتبارها أمراً لازماً لا تستقيم أمور الحكم بدونها.

وإليكم هذه الفقرة من مشاورة عمر لبعض الصحابة فيما يتعلق بأرض العراق حيث قال لهم: «**إني لم أزعجكم إلا أن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي، معكم كتاب الله ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق**» (٢).

٢- ولا يجوز أن يختار لها إلا من تتوافر فيه شروطها، لأن منصب الشورى من أخطر المناصب في الدولة، فكلمة الواحد منهم، قد تهوي بالأمة إلى قاع سحيق من الخزي والذلة والهوان، وقد تسموا بها إلى آفاق

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٤٨/٨.

عليا من السؤدد والرفعة، ولهذا يجب أن يختار بعناية فائقة، يقول الرسول ﷺ: «**من تولى من أمر المسلمين شيئا فاستعمل عليهم رجلا وهو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم بكتاب الله وسنة رسوله فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين**» ولأن اختيار غير الكفء يعتبر غشا للأمة وجماعة المسلمين وقد قال الرسول ﷺ: «**ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة**».

٣- ولا يجوز أن يتشبث برأيه إذا كان الحق في رأي غيره، وإنما يجب عليه أن يرضخ للحق ويعمل على تنفيذه استجابة لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (١).

٤- أن يحترم الرأي الآخر، ويمنح صاحبه الأمان الكامل فلا يضطهده ولا يعذبه بأي نوع من أنواع التعذيب، ولا يهدده في نفسه أو ماله أو عرضه أو ولده أو أي عزيز لديه وذلك، لأن الشورى لا يمكن أن تتحقق على الوجه الكامل ولا تحصل الغاية المنشودة منها إلا في رحاب الأمان الكامل.

وهذا كله ما لم تتضمن آراءه مساساً بالشريعة عن قصد وسوء طوية فحينئذ يؤاخذ بآرائه.

ب- وهي أمانة في عنق الأمة:

فيجب ألا تفرط فيها قيد أنملة، وأن تتحرى الدقة، فيمن تختاره، لتحمل هذه المسؤولية الخطيرة التي تتمثل في المشاورة والاجتهاد في تشريع الأحكام التي لم يرد بشأنها نص خاص في الكتاب أو السنة والرقابة على الهيئة التنفيذية في إدارة شؤون الحكم.

ومن ثم فمسئولية النائب ليست بالأمر الهين أو اليسير أنها أخطر من مسؤولية الطبيب والمهندس والقاضي وأستاذ الجامعة وأي وزير في الدولة.

ولذا فيجب على الأمة عند اختيارها، أن تقصر اختيارها على

(١) الآية ١٨ من سورة الزمر.

الكفاءات النادرة كل في مجال اختصاصه من ذوي الخبرة والعلم الذين يحسنون النصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم امتثالاً لتوجيه الرسول ﷺ.

١- وهؤلاء الذين يحسنون النصح لله هم المؤمنون الصادقون الذين يلتزمون منهج الله في سلوكهم قولاً وعملاً لا هؤلاء الذين يجهرون بالمعصية ويخالفون أحكام الله وتعاليمه ويتطاولون على الشريعة، فهم لا يصلحون للنيابة عن الآمة حتى ولو كانوا يحتلون مراكز مرموقة في المجتمع وحتى ولو كان لهم بريق ولمعان فهم، بريق زائف في معيار الإسلام، بل حتى لو كانوا يعتبرون أنفسهم أرباب فكر وذوي أقلام، فهي أفكار مريضة وأقلام مشبوهة لا تنفث إلا من بؤر الأحقاد على الشريعة.

٢- والذين يحسنون النصح لكتاب الله، هم الذين يواظبون على تلاوته ويتدبرون آياته، ويعكفون على دراسة أحكامه ويلتزمون العمل به.

٣- والذين يحسنون النصح للرسول هم المصدقون بكل ما جاء به المتمسكون بسنته لا هؤلاء الذين يرجون لأفكار مستوردة، تتعارض كل التعارض مع رسالته.

٤- والذين يحسنون النصح لأئمة المسلمين هم الذين يعينونهم على الحق، ويحذرونهم من الظلم، ويعبرونهم بما خفي عليهم من أحكام الله ويعظونهم بالحسنى، ويطيعونهم في غير معصيته، ويقدمون لهم المشورة الصادقة دون طمع فيما عندهم من مآرب الحياة الدنيا ولا رهب من سطوتهم وجبروتهم.

لا هؤلاء الذين يزينون لهم الباطل ويزيفون الحقيقة، ويساعدونهم على الظلم ويغشونهم في المشورة، ولا هؤلاء المنافقون ويأكلون على كل الموائد ويتلونون كالحرباء في كل مناسبة بما يلائمها.

٥- والذين يحسنون النصح لعامة المسلمين هم الذين يرشدونهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر وتشغلهم قضايا الأمة وهمومها أكثر ما تشغلهم قضاياهم الخاصة.

هؤلاء هم الذين يجب أن يكونوا نصب أعين الأمة عند اختيارها من

يتولى هذه المسئولية بالنيابة عنها، فليس لها أن تختار رجلاً عادياً، وإنما قمم العلم والخبرة كل في مجال اختصاصه، على نحو ما ذكرنا وقمم الفكر المتسق مع نصوص الشريعة ومبادئها العامة، لأن المسؤولية غير عادية إذ يرتبط بها مصير الأمة والضرر الذي ينشأ عنها لا يقتصر على فرد أو أفراد قليلة وإنما يمتد ليشمل كل أفراد الأمة.

وإذا كان لا يجوز إسناد هذه المسؤولية لرجل عادى، حتى ولو كان من ذوى المؤهلات العليا، إلا إذا كان متميزا في سلوكه وعمله وأخلاقه لا متميزاً بريائه ونفاقه فبالأحرى لا يجوز بحال إسنادها لرجل جاهل إذ كيف بالله يبدي رأياً في أدق المسائل السياسية والاقتصادية التي يحار فيها عمالقة الفكر من أرباب السياسة والاقتصاد.

وكيف يطلب منه حلا لكثير من المشاكل الاجتماعية المعقدة التي أعجزت عباقرة علوم الاجتماع؟

وكيف أنه يمكنه مراقبة الجهاز التنفيذي في الدولة ومحاسبته على أخطائه بينما هذه الأخطاء لا يمكن معرفتها إلا من ذوي الخبرة والعلم.

يقول الله ﷻ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

ويقول ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢).

هذا وسوف نستأنس هنا بنماذج من الشورى في عهد الرسول ﷺ ونماذج منها في عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

* * *

الشورى في عهد الرسول ﷺ

كان الرسول ﷺ يستشير الصحابة دائماً في الأزمات الكبيرة والأحداث الخطيرة التي تواجه الأمة الإسلامية كالحروب وما شابهها.

وذلك إذا لم يكن ثمة وحي، فإن كان هناك وحي فلا رأي لأحد ولا

(١) الآية ٤٣ من سورة النحل.
(٢) الآية ٩ من سورة الزمر.

مشورة ومن صور المشورة في عهد الرسول ﷺ ما يأتي:

١- في غزوة بدر:

١- بعد أن استقر الرسول ﷺ بالمدينة أخذ يتتبع أخبار قريش ويرسل عيونه لذلك فجاءته الأخبار أن أبا سفيان قادم من الشام في عير لقريش تتمثل في ألف بعير بأحمالها، ومعه ثلاثون رجلاً أو أربعون لحراستها، فدعا المسلمين للخروج إليهم لقتالهم وأخذ أموالهم؛ فهم قد أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرين من ديارهم وأذاقوهم أشد ألوان العذاب وصادروا أموالهم، فحق لهم أن يستعيدوا بعض ما أخذ منهم وأن يذيقوا قريشاً بعض ما أذاقوهم من العذاب ومن ثم يقول الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[(١)].

ولم يتوقع المسلمون حينئذ أن الأمر سيؤول إلى معركة حربية فاصلة في تاريخ الإسلام، ومن ثم فقد خرج مع رسول الله ﷺ بعضهم وتخلف بعضهم الآخر.

فكان الذين خرجوا معه ثلاثمائة رجل، وبضعة عشر رجلا منهم ثمانون رجلاً أو أكثر قيلاً من المهاجرين، والباقي من الأنصار، ولم يكن معهم سوى فرسان وسبعون بعيرا، وكان أحد الفرسان للزبير بن العوام، والثاني للمقداد بن الأسود الكندي، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرشد الغنوي يتناوبون الركوب على بعير واحد.

وانطلق رسول الله ﷺ من المدينة بمن خرج معه قاصدا عير أبي سفيان، وعلم أبو سفيان بالأمر لأنه كان يلتقط أخبار الرسول ﷺ أيضاً فأرسل إلى أهل مكة يستصرخهم النجدة وحماية أموالهم فأهاجهم أبو جهل وأثار حميتهم وحرضهم جميعاً على الخروج لحرب محمد ﷺ، فخرجوا في نحو ألف وثلاثمائة مقاتل، ومعهم مائة فرس ومائة درع

(١) الآيات ٣٩، ٤٠ من سورة الحج.

وأعداد هائلة من الجمال لا يعرف عددها وكان في عداد الجيش بعض قبائل العرب القريبة من مكة فضلاً عن أهل مكة، ثم ما لبث أبو سفيان أن فكر في حيلة تنقذه وتنقذ تجارته من الرسول ﷺ، فسلك طريقاً آخر إلى مكة غير الطريق الرئيسي، الذي يتوقع تربص الرسول ﷺ فيه، وأرسل إلى مكة يخبرها بذلك.

ولما علم جيش مكة بهروب أبي سفيان وسلامة ما معه من مال وتجارة ومن معه من الرجال، فأرادوا الرجوع ولكن أصر أبو جهل على ألا يرجعوا قبل أن يصلوا بدراً، ويقيموا بها ثلاثة أيام ينحرون فيها الإبل ويطعمون الطعام ويسقون الخمر، ويرقصون على عزف القيان حتى تسمع العرب جميعاً بذلك، فيهابونهم، وحتى يقذف الرعب في قلب محمد وأصحابه، فلا يفكرون في مثل هذا الأمر مرة أخرى، وعارضه في ذلك بنو زهرة ورجعوا من حيث أتوا وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، واستمر أبو جهل ومن معه لتحقيق ما أراده.

ولما علم الرسول بانفلات عير أبي سفيان، وقدوم جيش قريش لاستعراض قوته، وفرض نفوذه في المنطقة، وجد أنه غدا أمام أمر آخر لم يدر بخلده من قبل، ولم يعد له عدته، فماذا يفعل؟ إن تركهم يستعرضون قوتهم على هذا النحو الذي يريدونه سيترتب على ذلك هزيمة معنوية للمسلمين وآلام نفسية قاسية، وإن دخل معهم في مواجهة عسكرية، فالمعركة غير متكافئة، لأنهم لم يعدوا أنفسهم عند الخروج لخوض أي معركة حربية، ثم إن أكثر الموجودين معه من الأنصار، وهم كانوا قد بايعوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبنائهم، ونسائهم، فتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه في المدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم.

وأمام هذه المفاجأة لم يجد الرسول ﷺ بدا من أخذ رأي جنوده وقواد جيشه المحدود عدداً وعدة؛ حيث لم يكن ثمة وحي بشأن هذا الموقف.

وحينئذ قام أبو بكر ﷺ فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: " يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

لموسى: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [1]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - موضع باليمن - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ".

فقال له رسول الله ﷺ، ثم قال: أشيروا على أيها الناس، يريد الأنصار لأن الثلاثة الذين تكلموا من المهاجرين.

فلما قال الرسول ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل. قال: قد أمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فسر رسول الله لما أردت فنحن معك، الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فختضه لخضناه ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن نلقي بنا عدونا غدا إنا صبر في الحرب صدق عند اللقاء، فلعل الله يريك ما تقر به عيناك فسر بنا على بركة الله ".

ومما قاله أيضاً: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها ألاَّ تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاظعن حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت به من أمر، فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى البرك من غمدان لنسيرن معك ".

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، فقال:«**سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم**».

وهذا الكلام من صحابة رسول الله ﷺ إن دل على شيء، فإنما يدل على إيمان راسخ ويقين بالله منقطع النظير وحب صادق لرسول الله ﷺ، فهم رهن إشارته بنانه بحيث لو خاض بهم البحر لخاضوا معه.

ومع ذلك لم يشأ الرسول ﷺ أن يستأثر بالرأي دونهم، امتثالاً لقوله تعالى:﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة.

فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ (١)، وفي ذلك تعليم وإرشاد لكل حاكم مسلم ألا ينفرد بالرأي دون رعيته، فالإسلام ينظر إلى أي حاكم على أنه بشر يخطئ ويصيب مهما بلغ من العقل والحكمة والذكاء وأنه لا عاصم له من الخطأ في الكثير الغالب إلا حسن المشورة، فليس في الإسلام أبداً ما يسمى بنظرية الحاكم الملهم الذي لا يخطئ، فقد عانينا منها أشد ألوان المعاناة وقاسينا منها المر والعلقم والهوان، ولو كان لهذه النظرية وجود في الإسلام لكن أولى بها رسول الله ﷺ.

٢ـ في أسرى بدر:

رغم قلة عدد المسلمين وعتادهم في عزوة بدر، ورغم مفاجأتهم بهذا الموقف الصعب الذي لم يدر في خلدهم، فقد دارت رحى الحرب على نحو لم يشهد له التاريخ مثيلا، فقد ثبت الله المؤمنين وأمدهم بروح منه وقذف الرعب في قلوب الذين كفروا، فهؤلاء صناديد قريش تتطاير رؤوسهم من فوق أجسامهم كأوراق الخريف الجافة، وتساقط تحت أقدام الذين كانوا يستضعفونهم بالأمس ويسومونهم سوء العذاب، ودارت الدائرة عليهم فقتل منهم من قتل وأسر من أسر وكتب الله النصر للمؤمنين: ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (٢).

وكأن الله أراد لأبي سفيان أن يهرب، وأن تأتي قريش بكل ما تملك من رجل وعتاد، وأن يكون خروج المسلمين بهذه القلة، وذلك لتمضي الأمور على نسق حكمته وتدبيره.

فلو لم يهرب أبو سفيان واستولى المسلمون على أموال تجارته، لكان الأمر عادياً وغدا أثره هينا في نفوس الجميع - مسلمون وغير مسلمين - إذ لا يتضمن بطولة خارقة، ولا شجاعة نادرة، ولكن الله يريد للمسلمين نصراً عزيزاً مؤزراً، يكون حديث الدنيا كلها، ويكون صفحة ناصعة تشرق بالنور في تاريخهم.

أجل أراد الله للمسلمين نصراً عزيزاً مؤزرا يذل كبرياء القرشيين،

(١) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٤ من سورة الروم.

ومن وراءهم من المشاركين جميعاً، ويمرغ كرامتهم في الوحل، ولا يمكن أن يتحقق النصر المؤزر، إلا بهروب أبي سفيان وخروج المسلمين بهذه القلة، وخروج القرشيين بهذه الكثرة، لتتعاقد روعة الإيمان مع روعة النصر، وجيء بالأساري وفيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترون في هؤلاء الأساري**» فقال أبو بكر، يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وقال عمر: كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدمهم، فاضرب أعناقهم، وقال عبدالله بن رواحة: انظروا وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم، فقال العباس - وهو يسمع - قطعت رحمك - فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئا، فقال أناس يأخذ بقول أبي بكر ﷺ، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج الرسول ﷺ فقال: «**إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، ويشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم**» قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢).

ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام **إذ قال**: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٣). ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (٤)، ثم قال للأسرى: «**أنتم عالة فلا ينفلتن أحدٌ إلا بفداء أو ضرب عنق**». فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥)، فقال الرسول ﷺ: «**إن كاد ليصيبنا في خلاف ابن**

(١) الآية ١٣٦ من سورة إبراهيم.
(٢) الآية ١١٨ من سورة المائدة.
(٣) الآية ٢٦ من سورة نوح.
(٤) الآية ٨٨ من سورة يونس.
(٥) الآية ٦٧، ٦٨ من سورة الأنفال.

الخطاب عذاب ولو نزل عذاب ما افلت إلا عمر».

وفي رواية أخرى من حديث عمر بن الخطاب ﷺ... قال ابن عباس: فلما أسروا الأساري قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر:«**ما ترون في هؤلاء الاساري**» فقال أبو بكر: يا رسول الله، هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ:«**ما ترى يا بن الخطاب**» قلت: لا، والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه، فإن هؤلاء هم أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا برسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ:«**أبكي للذي عرض على أصحابك، من أخذهم، الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» [1] كانت قريبة من النبي ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [2].

ويستفاد مما تقدم أن النبي ﷺ قد وازن بين رأي أبي بكر ورأي عمر في مسألة أسرى بدر، وأنه قد أخذ برأي أبي بكر اجتهاداً منه ﷺ، فكان العتاب من الله ﷻ هنا على أمرين:

أحدهما: اللجوء إلى الأسر من الأصل، فهذا خطأ في تلك المعركة بالذات لأن لها طبيعة خاصة، إذ إنها أول معركة في الإسلام، بين جيش الحق وجيوش الباطل، بحيث لو هزم المسلمون فيها، لكان في ذلك القضاء المبرم على الإسلام، ومما يؤكد ذلك أن النبي ﷺ استقبل القبلة، ثم مد يديه وجعل يهتف بربه قائلاً:«**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**» فمازال يهتف بربه، مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذه

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩٣/٤.
(٢) الآية ٦٧ من سورة الأنفال.

فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك لربك، فإنه سينجز ما وعدك [1] فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [2].

وإذا كان لهذه المعركة تلك الأهمية البالغة في حياة المسلمين فكان مقتضى ذلك ألا يشغل المسلمون أنفسهم بأمر الأسرى من أجل عرض الحياة الدنيا، وإنما كان الواجب عليهم أن يعمدوا إلى كسر شوكة هؤلاء الكفار، بقتلهم وتطهير الأرض منهم، حتى لا يعودوا إلى قتال المسلمين مرة أخرى وحتى يكون ذلك رادعاً لكل من تسول له نفسه قتالهم.

الثاني: أخذ الفدية من هؤلاء الأسرى فهذا خطأ آخر، أولى منه إعمال السيوف في رقابهم، فهؤلاء هم الذين أذاقوا المسلمين أشد العذاب وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فلم يعد لهم في شرعة الإسلام شفقة ولا رحمة.

ونخلص من كل ما تقدم أن النبي ﷺ طلب الرأي من الصحابة في أسرى بدر، وأنهم قد اجتهدوا في ذلك ثم وازن النبي ﷺ، بين آرائهم فأخذ برأي أبي بكر اجتهادا منه ﷺ، حيث لم يكن في المسالة وحي حينذاك، ثم نزل الوحي مبيناً الحكم الصحيح مقروناً بالعتاب لأخذ الأسرى وأخذ الفداء منهم.

٣- في غزوة أحد:

بعد أن أصاب أهل مكة ما أصابهم في غزوة بدر أصروا على الثأر لقتلاهم علهم يطفئون جذوة الحقد المضطرم في صدورهم، ويستردون شيئا من هيبتهم التي أطاح بها المسلمون، فظلوا يعدون لهذه المعركة عاماً كاملاً حتى أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان، والتي كانت سببا في غزوة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا إن ندرك منه ثأراً فاستجابوا لذلك فباعوها، وكانت ألف بعير

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٩٣/٤.
(٢) الآية ٩ من سورة الأنفال.

والمال خمسين ألف دينار[١] وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ ﴾[٢].

وبعد انتهاء السنة خرجوا في جيش، عدته ثلاثة آلاف مقاتل من قريش ومن حالفهم من القبائل التي تجاورهم وأخذوا معهم نساءهم، لئلا يفروا ليحاموا عنهن[٣].

وترامت أخبار هذا الجيش إلى الرسول ﷺ في المدينة واستشار رسول الله ﷺ أصحابه أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة، وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت.

ووافقه على هذا الرأي عبدالله بن أبي، وكان هو الرأي، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاتهم الخروج يوم بدر وأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه في ذلك وأشار عبدالله بن أبي بالمقام في المدينة وكان رأيه ألاَّ يخرجوا من المدينة وتابعه عليه بعض الصحابة،فألح أولئك على رسول الله ﷺ فنهض، ودخل بيته ولبس لأمته، وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك، وقالوا أكرهنا رسول الله ﷺ في الخروج، فقالوا: يا رسول الله إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل، فقال رسول الله ﷺ :«**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»[٤].

وبغض النظر عن نتيجة المعركة، وما آلت إليه، فالذي يعنينا هنا هو بيان كيف أن النبي ﷺ لم ينفرد برأيه، وإنما عرض الأمر على الصحابة، وشرح لهم وجهة نظره، وكان للأغلبية منهم وجهة نظر أخرى، فترك النبي ﷺ رأيه وأخذ برأيهم، ولما شعروا بشيء من الندم إحساساً منهم أنهم اضطروه على الخروج للقتال بعيدا عن المدينة، وإن الأمر موكول إليه، ورأيهم تبع لرأيه، فإن شاء أن يعدل عن الخروج فليفعل، وليس

(١) الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري..
(٢) الآية ٣٦ من سورة الأنفال.
(٣) زاد المعاد ١٠٢/٢.
(٤) المرجع السابق.

عليهم إلا السمع والطاعة، قال لهم قولته المشهورة:«ما كان لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

٤- في غزوة الخندق:

كانت في شوال من السنة الخامسة للهجرة وذلك أن قريشاً عقب انتهاء معركة أحد قد توعدوا المسلمين - على لسان أبي سفيان - بقتالهم في العام المقبل أي العام الرابع للهجرة إذ أن غزوة أحد كانت في العام الثالث ولكنهم لم يأتوا للقتال في العام الرابع بسبب جدب تلك السنة.

ولما لم يحضروا في العام الرابع، تخوف اليهود أن يكونوا قد عدلوا عن حرب الرسول بشكل عام، ولما كانوا يضمرون كل العداء والبغض للإسلام والمسلمين فلابد لهم أن يستعملوا أخس الأسلحة ضد الرسول وصحبه وهي أسلحة الخبث واللؤم والمكر التي اشتهروا بها، فاختاروا عشرين رجلاً منهم يذهبون إلى قريش يذكرونهم بوعيدهم الذي أخلفوا ولابد لهم من القضاء على محمد ومن معه قبل أن يستفحل خطره ويقضي هو عليهم.

ولم يكتف هؤلاء بتحريض أهل مكة فقط، وإنما خرجوا إلى كل القبائل العربية يؤلبونهم على المسلمين، ويشعلون نار الفتنة بينهم يحثونهم على قتالهم، فاستجابت أكثر القبائل العربية لهم، فخرجت قريش في أربعة آلاف مقاتل انضم إليهم بنو سليم وبنو أسد، وفزارة وأشجع وبنو مرة وغطفان حتى بلغت جملة جيشهم عشرة آلاف مقاتل، وهذا العدد يفوق جيش المسلمين بمراحل شتى [١].

وعلم المسلمون بمسيرهم فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق، يحول بين العدو وبين المدينة فأمر به الرسول ﷺ فبادر إليه المسلمون، وعمل فيه ﷺ بنفسه، ووكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعا [٢]، وواصل المسلمون عملهم بجد ونشاط فكانوا يعملون طول النهار، ويعودون إلى أهليهم في

(١) زاد المعاد ١٣٠/٢.
(٢) الرحيق المختوم تأليف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ص ٣٦٠.

المساء، حتى انتهوا منه في الميعاد المحدد قبل وصول جيش الأحزاب.

وكان موقع هذا الخندق شمال المدينة، باعتبار أن زحف جيوشهم، لن يكون إلا من هذه الجهة، لأن المدينة تحيط بها الجبال وبساتين النخيل من كل جانب سوى الشمال [١].

وكان لهذا الرأي الذي أبداه سلمان الفارسي للرسول ﷺ أثر بالغ في حماية المسلمون من أعدائهم، إذ إن جيوش المشركين حينما فوجئوا بالخندق بهتوا، وأصيبوا بصدمة، وخيبة أمل كبرى حيث لم يتوقعوا حدوث مثل هذا الأمر لأن حروبهم لم تشهد من قبل له نظيرا. ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [٢].

والفضل في ذلك كله يرجع إلى الله تعالى ثم إلى منهج الرسول ﷺ في عدم استئثاره بالرأي، وحرصه البالغ على مشاركتهم إياه في كل أمر يمس مصلحة الإسلام والمسلمين ما لم يكن هناك وحي، فإنه لو لم يأخذ رأيهم لما رأت فكرة سلمان الفارسي النور، ولنال المسلمين شر خطير داهم.

٥- وفي غزوة الخندق أيضا:

في هذه الغزوة واجه المسلمون امتحاناً قاسيا وعنيفا، ولولا قوة إيمانهم وشدة يقينهم بالله لما استطاعوا مواجهة مثل هذا الموقف أبدا.

فهؤلاء مشركو قريش ومن معهم من غطفان وغيرهم، قد جاؤوا في عشرة آلاف مقاتل، يحاصرونهم ويتربصون بهم في الجهة المقابلة من الخندق ويمعنون التفكير في البحث عن أي منفذ ينقضون منه على المسلمين.

وهؤلاء يهود بني قريظة قد نقضوا العهد الذي كانوا أبرموه مع النبي ﷺ وتحالفوا مع الأعداء ضدهم.

وهؤلاء المنافقون قد أماطوا اللثام عن وجههم الكالح الكئيب ﴿ قَدْ

(١) المرجع السابق.
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأحزاب

بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (١)، فأخذوا يتعللون بحجج واهية للانسحاب من جيش المسلمين، والإقامة في المدينة، ولم يكتفوا بذلك، بل عمدوا إلى تخذيل المؤمنين وبث الخوف والوهن في نفوسهم.

ومن ثم فقد عبر القرآن الكريم عن هذا الموقف أبلغ تعبير وصوره أدق تصوير وذلك حيث قال ﷻ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٢).

وأمام هذا الموقف الحرج المتأزم لم يجد الرسول ﷺ بدا من التفكير في البحث عن مخرج يعصم به دماء المسلمين وأموالهم، فكتب صلحاً بينه وبين عيينة بن حصن زعيم غطفان، على ثلث ثمار المدينة، ليرجع بجيشه من حيث أتى فتخف حدة الحصار على المسلمين.

وقبل أن يكتسب العقد الصفة الرسمية له بالتوقيع عليه أرسل النبي ﷺ إلى سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج، ليستشيرهما في أمر هذا المعاهدة، وقد أرسل إلى هذين بالذات، لأنهما زعيما الأنصار وعبء هذه المعاهدة، لو تمت لن يقع إلا على كاهل الأنصار، لأنهم أهل المدينة الأصليون وجل بساتين المدينة ملكهم.

فلما استشارهما قالا له: أمراً تحبه فتصنعه، أم شيئا، أمرك الله به لابد لنا من العمل به؟ أم شيئا تصنعه لنا؟

قال: **«لا بل شيئا أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك، إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»**.

فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا، ونحن هؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه وهم لا يطمعون في أن يأكلوا

(١) الآية ١١٨ من سورة آل عمران.
(٢) الآيات ١٠-١٢ من سورة الأحزاب.

ثمرة إلا عن قرى أو بيعاء، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا إليه وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا، والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ:«**فأنت وذاك**» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحى ما فيها من الكتاب وقال ليجهدوا علينا [1].

٦ـ وفي صلح الحديبية:

كانت وقعة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة.

وسببها أن النبي ﷺ رأى في المنام أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام واخذ مفتاح الكعبة وطافوا واعتمروا، فأخبر أصحابه بذلك ففرحوا،ثم اخبرهم انه معتمر فتأهبوا للسفر [2].

وخرج من المدينة يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ست من الهجرة ومعه زوجته أم سلمة وألف وأربعمائة أو ألف وخمس مائة كما في رواية أخرى.

ولما غدا قريبا من المدينة أرسل من يستطلع له أخبار قريش فعلم أن قريشاً تعد العدة لقتاله واستنفرت لذلك بعض الأحباش وبعض القبائل الأخرى لينضموا إليهم في حرب الرسول ﷺ ومنعه من العمرة ودخول مكة، فاستشار أصحابه في الأمر فقال أبو بكر ﷺ: إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه [3]، فاستصوب النبي ﷺ رأيه وأمرهم بمواصلة السير في اتجاه مكة، حتى إذا كانت بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء، فقال ﷺ :«**ما خلات وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل**»، ثم قال:«**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها**» ثم زجرها فوثبت به فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، وتوالت الرسل في التوسط بينه وبين قريش حتى انتهى الأمر بصلح

(١) ملامح الشورى لعدنان النحوي ص ١٥٦ نقلاً عن سيرة ابن هاشم.
(٢) الرحيق المختوم ٣٩٨.
(٣) المرجع السابق ص ٣٩٩.

الحديبية المشهور في التاريخ الإسلامي.

والذي يعنينا هنا هو بيان أن النبي ﷺ اجتمع مع أصحابه فوراً لمعرفة آرائهم بشأن هذه المشكلة ولم ينفرد بالرأي دونهم.

غير أنه يلاحظ في صلح الحديبية أن النبي ﷺ وإن كان قد شاور الصحابة عندما علم بعزم قريش المضي على منعه من العمرة واستحسن رأي أبي بكر في المضي إلى البيت الحرام دون قتال إلا إذا تعرض لهم المشركون بالفعل، وأصروا على منعهم، وذلك كله جرياً على منهجه في مثل هذه المواقف دائماً.

إلا أن إبرام الصلح بالكيفية التي حصلت به كان مثار احتجاج الصحابة بشكل عام وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ باستثناء أبي بكر ونفر قليل منهم.

ومعنى ذلك أن النبي ﷺ لم يبال باعتراضهم، ولم يلتزم بما تقتضيه الشورى من الأخذ برأي الأغلبية، والسواد الأعظم منهم، كما هو منهجه في الشورى بشكل عام، فيا ترى لماذا تمسك عليه السلام بموقفه هنا وخالف رأي الأغلبية.

وللإجابة على ذلك نقول أن بداية تمسك النبي ﷺ بموقفه هنا ترجع إلى اللحظة التي بركت فيها ناقته القصواء، وهي في اتجاهها إلى البيت الحرام وقوله عليه السلام إجابة عليهم حينما قالوا: خلأت القصواء، فقال:«**ما خلأت وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**» فهذا القول من الرسول ﷺ يعتبر هو العامل الجوهري في تغيير خطته الأولى والتشبث بالسلام قدر المستطاع رعاية لحرمة البيت الحرام، وما يؤكد ذلك قوله ﷺ:«**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها**» وإذا كان الأمر يتعلق بحرمة البيت الحرام فلا مجال بعد ذلك للرأي حتى ولو كان هو رأي السواد الأعظم من الصحابة.

والصحابة هنا لشدة تشوقهم للبيت الحرام، وجدوا أن رجوعهم هذا العام دون أداء مناسك العمرة صدمة عنيفة لهم، ومما زاد من فداحة هذه الصدمة قبول بعض الشروط التي ظنوها محجفة بهم.

ولكنهم لم يلبثوا بعد التطبيق العملي للمعاهدة أن تبينوا مدى خطئهم لما حققته من خير للإسلام والمسلمين، حيث دخل الناس بعدها في دين الله أفواجا، بعدها شعروا بالأمان وحيث حفظت حرمة البيت الحرام فلم ترق في رحابه الدماء.

٧ـ مشاورة الرسول لأم سلمة:

لم تقتصر شورى الرسول ﷺ في المواقف الحرجة على عامة المسلمين ولا على الرجال فقط، وإنما كان يستشير بعض نسائه.

فمن ذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من عقد صلح الحديبية قال لأصحابه: «**قوموا فانحروا، ثم احلقوا، فلم يقم منهم رجل واحد**»، حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فقام، فخرج فلم يكلم أحدا منهم، حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا، فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً [1].

* * *

صور من الشورى

في عهد الخلفاء الراشدين ♦

١ـ عمر والمؤلفة قلوبهم:

المؤلفة قلوبهم هم صنفان من الناس لهم سهم في مال الزكاة: أحدهما مسلم ضعيف الإيمان، والثاني غير مسلم يخشى شره أو يرجى إسلامه.

والسهم الذي فرضه الله لهم. في مال الزكاة لاستمالتهم إلى الإسلام ودفع أذاهم عن المسلمين، ولتقوية إيمان من دخلوا الإسلام، حديثاً ولم يستقر الإيمان في قلوبهم [1]، ومن ثم فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ

(١) زاد الميعاد ١٣٩/٢.

(١) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص ١٢٢.

لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ولقد كان لعمر ﷺ في عهد أبي بكر ﷺ الفضل الأول في وقف سهم المؤلفة قلوبهم ومنعهم من الحصول على أي امتيازات ينفردون بها عن غيرهم، حيث لم يعد مجال لتأليفهم، لأن المسلمين قد غدوا في قوة ومنعة بفضل الله ولم يعودوا بحاجة لاستمالة هؤلاء، فمن شاء منهم فليؤمن، وله ما لباقي المسلمين وعليه ما عليهم، ومن شاء فليكفر فلن يؤثر كفره على قوة المسلمين بشيء، ولكن إن كان كفر بعد إسلام فليس له إلا القتل.

ولنستعرض هذا الموقف كما أخرجه ابن سعد في طبقاته:

أخرج ابن سعد عن القاسم أن أبا بكر الصديق ﷺ كان إذا نزل به أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي والفقه دعا رجالا من المهاجرين والأنصار. ودعا عمر و عثمان ودعا عبدالرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وزيد بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهم.

وكل هؤلاء كان يفتي في خلافته، وإنما يعتبر فتوى الناس إلى هؤلاء، فمضى أبو بكر على ذلك، ثم ولى عمر فكان يدعو هؤلاء النفر، وحين كان يتطلب الأمر مشورة أو نصيحة لخليفة المسلمين ويشعر بذلك أحد من أهل الرأي والمشورة كان ينهض إلى هذا الواجب فينصح لله ويشير.

وقد جاء عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس إلى أبي بكر ﷺ، فقالا: يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة، ليس فيها كلأ ولا منفعة، فإذا رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها، فأقطعها إياهما، وكتب لهما عليه كتاباً وأشهد فيه عمر ﷺ - وليس في القوم - فانطلقا إلى عمر ليشهداه فلما سمع عمر ما في الكتاب، تناوله من أيديهما، ثم تفل فيه، ورماه فتذمرا، وقالا مقالة سيئة، قال عمر: إن الرسول ﷺ كان يتألفكما والإسلام ذليل، وإن الله قد أعز الإسلام فأذهبا فأجهدا جهدكما، لا رعى الله عليكما، إن رعيتما فأقبلا إلى أبي بكر، وهما يتذمران فقالا: ما ندري

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة.

أنت الخليفة أم عمر، فقال: بل هو لو شاء كان، فجاء عمر مغضبا، حتى وقف على أبي بكر فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين الرجلين أرض هي لك خاصة أم هي بين المسلمين عامة؟

قال: بل هي بين المسلمين عامة، قال: فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين؟ قال: استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا علي بذلك، قال: فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أو كل المسلمين أوسعت مشورة ورضا؟ فقال أبو بكر قلت: إنك أقوى على هذا مني ولكنك غلبتني "[1].

ويعقب بعض من في قلوبهم مرض أو من لا دراية لهم بالشريعة على هذه الواقعة، فيقولون: إن عمر ﷺ قد عطل النص القرآني بتصرفه هذا، وقدم رأيه على حكم الله تعالى.

ويقال لهؤلاء: أن هذا الإجراء من الخليفة عمر بن الخطاب، لا يعني إلغاء النص أو نسخه، وإنما يعني عدم تطبيقه لعدم توافر شروط التطبيق، وعدم تطبيق النص شيء وإلغاء النص شيء آخر، وما كان لعمر أو لغير عمر أن يلغي نصوص القرآن.

وتوجيه عمل عمر بن الخطاب أن المسلمين في زمانه كثر عددهم وقويت شوكتهم، وصار لهم دولة قوية مرهوبة الجانب، وهذه الأحوال التي صار إليها المسلمون تؤدي بطبيعتها إلى تقوية إيمان المسلم.

ومعنى هذا أن علة الحكم بإعطائهم من الزكاة قد زالت وبزوالها لا يبقى مجال لتطبيق النص بخصوص سهم المؤلفة قلوبهم، كما لو كان هناك فقراء يعطون من الزكاة باعتبارهم من الفقراء أي لعلة الفقر، فإذا زالت هذه العلة بأن صاروا أغنياء فإنهم لا يستحقون سهم الفقراء، لزوال علة إعطائهم، وهي فقرهم، فالمؤلفة قلوبهم لم يعد لهم وجود في زمن عمر بن الخطاب، لزوال المعنى الذي من أجله استحقوا اسم المؤلفة قلوبهم، وعدم وجودهم يعني عدم وجود مستحق لهذا الاسم.

فما فعله عمر بن الخطاب يتعلق بشروط تطبيق النص، ولا يدل أبدا

(١) ملامح الشورى لعدنان النحوي ص ٢٠٥ -٢٠٦ نقلاً عن طبقات بن سعد.

على إلغاء النص، فالنص الخاص بحكم المؤلفة قلوبهم باق إلى يوم القيامة لا يلحقه نسخ، ويلزم تطبيقه إذا تحققت شروطه تطبيقه، كأن تكون للمسلمين حاجة لمن يرى ولي الأمر تألفه على الإسلام، ولهذا دفع عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي المعروف شيئاً من أموال الزكاة لمن رأى ضرورة تألفه على الإسلام (١).

٢ـ الشورى في حروب الردة:

روي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما قبض رسول الله ﷺ ارتد من ارتد من العرب وقالوا: نصلي ولا نزكي، فأتيت أبا بكر ﷺ فقلت: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، فإنهم بمنزلة الوحش، فقال: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك، إجباراً في الجاهلية، خواراً في الإسلام، ماذا عسيت أن أتألفهم بشعر مفتعل، أو بسحر مفترى، هيهات هيهات مضى النبي وانقطع الوحي، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالاً، قال عمر ﷺ: فوجدته في ذلك أمضى مني وأعزم " (٢).

وفي رواية أخرى عن عمر أيضاً قال: لما اجتمع رأي المهاجرين أنا فيهم حين ارتدت العرب، فقلنا: يا خليفة رسول الله اترك الناس يصلون ولا يؤدون الزكاة، فإنهم لو دخل الإيمان في قلوبهم، لأقروا بها، فقال أبو بكر ﷺ: والذي نفسي بيده لأن أقع من السماء أحب إلي أن أترك شيئا قاتل عليه رسول الله ﷺ، إلا أقاتل عليه فقاتل العرب حتى رجعوا إلى الإسلام فقال عمر: والذي نفسي بيده لذلك اليوم خير من آل عمر (٣).

وعنه أيضاً قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب، قال عمر ﷺ : يا أبا بكر كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ:**«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله».**

(١) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية تأليف عبدالكريم زيدان ص ١٢٢-١٢٣.
(٢) ملامح الشورى لعدنان النحوي ص ٢١١ نقلاً عن حياة الصحابة.
(٣) المرجع السابق.

قال أبو بكر ﷺ : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا، كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ".

قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (١).

إلا وإن هذا الموقف ليرينا عجباً، فهذا أبو بكر الهين اللين الرقيق الذي يكاد الناظر إليه يرى أعماقه من شدة رقته، ورهافة حسه، وشفافية فؤاده وصفاء نفسه، ونور الإيمان الذي يتلألأ في وجدانه، يسري في كيانه، نراه قد تحول فجأة إلى نمر ضار وأسد هصور، فلا هوادة لديه ولا لين ولا رفق ولا مسامحة وإنما عزم وإصرار على القتال حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وهذا عمر الذي كانت تهابه الأجنة في أرحامها، ويهرب منه الشيطان من شدته في الحق كسيف لا يلين، نراه في هذا الموقف بالذات يجنح إلى المهادنة ويميل إلى الموادعة، ويحبذ الرفق ويرجوا المسالمة حتى أن أبا بكر يقول وهو برم به، ومتعجب من أمره، رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك أجباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام، وكان كلاً منهما قد تقمص في هذا الموقف شخصية الآخر، فيا ترى لما حصل هذا التغيير وكيف حصل في شخصية كلاً منهما؟

إن هذا التغيير الذي حصل في شخصية كل منهما لم يكن انطلاقاً من حرص على مآرب شخصية وأغراض دنيوية، كما نشاهد في حياتنا من تغيير ذوي المبادئ التي كانوا يتظاهرون بها مبادئهم، ويتنكرون لها لحصولهم أو ابتغاء حصولهم على منافع شخصية، وكثيراً ما عانينا من هؤلاء في حياتنا المعاصرة.

لم يكن هذا الانقلاب الذي حدث في شخصية كلاً منهما بسبب شيء من ذلك وإنما كان بدافع واحد فقط هو الحب اللامتناهي للإسلام والخوف كل الخوف عليه من خطر داهم، يتهدده ويوشك أن يطفئ نوره، ولكن

(١) المرجع السابق.

هذا الخطر يختلف في نظر كل منهما عن الآخر.

فالخطر الذي يتهدد الإسلام في نظر أبي بكر يتمثل في ترك هؤلاء حتى يستفحل أمرهم وينقضوا عُرا الإسلام عروة عروة حتى يتخلصوا منه نهائياً ثم يقضوا بعد ذلك على المسلمين.

ومن ثم فالأمر في نظره يحتم المبادرة، بوأد هذه الفتنة في مهدها قبل أن يشتعل أوارها وتأتي على الأخضر واليابس.

وأما عمر فالخطر الداهم في نظره يتمثل في الدخول في حرب لا تؤمن عواقبها مع هؤلاء المرتدين الذين بلغوا قوة فائقة، وكثرة لا يستهان بها حتى شملوا معظم الجزيرة العربية [1].

(١) نبذة عن الردة والمترددين في عهد النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ: كان أول المرتدين الأسود العنسي واسمه عبهلة بن كعب بن عوف العنسي وهو من اليمن وقد ارتدت معه قبيلته ولما علم النبي ﷺ بردته، وادعائه النبوة أمر المسلمين الذين في اليمن بقتله، وجاء خبر قتله المدينة صبيحة اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ.
كان من بينهم أيضاً طلحة بن خويلد الاسدي من بني أسد، وقد ارتد أيضاً وادعى النبوة في عهد النبي ﷺ، وارتد معه أناس كثيرون من بني أسد وغطفان وطئ وقزازة وغيرهم، وبقي على ردته إلى عهد أبي بكر ﷺ، فأرسل وفوده إلى أبي بكر ليوادعه على الصلاة وترك الزكاة.
وكذلك مسيلمة الكذاب كان اجتمع بالنبي ﷺ في وفد بني حنيفة، ولما رجع إلى قومه ادعى أنه شريك الرسول ﷺ في النبوة، وإن له نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريش يعتدون فكتب إليه النبي ﷺ:«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمه الكذاب أما بعد السلام على من اتبع الهدى فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».
وقد اشتد أمر مسيلمة بعد الرسول ﷺ حتى بلغ تعداد جيشه أربعين ألف مقاتل.
ثم ارتد الجارود بن المعلي - من البحرين - بعد وفاة النبي ﷺ وارتد معه أهل البحرين.
ومن عمان ارتد لقيط بن مالك الأزدي وغلب على عمان.
وفي مهرة ارتد رجلان كل منهما معه جماعته وجيشه، أما أحدهما فيقال له مشخريت " وأما الآخر فيسمى الصح من بنى محارب. وكان بين الرجلين منافسة وخلاف.
وفى اليمن أيضا: ارتد قيس بن عبد يغوب بن مكشوح، لما بلغه أن النبي ﷺ قد مات مع أنه اشترك في قتل الأسود العنسى، وفى حضر موت ارتد الاشعث بن قيس بعد وفاة النبي ﷺ، انظر ملامح الشورى ص ٢٠٠، ٢١٠، هؤلاء هم المرتدون الذين ابتلى بهم أبو بكر ﷺ في باكورة حكمه، أعداد غفيرة تكاد تكون معظم الجزيرة العربية، ويبدو أن هؤلاء ممن أسلموا في أواخر عهد الرسول ﷺ ولم يدخل الإيمان قلوبهم بعد فتحين أكثرهم فرصة موت النبي ﷺ وكشف عن حقيقته الحالية من الإيمان.

ثم أن القوة الضاربة لجيش المسلمين تقاتل في بلاد الروم بقيادة أسامة ابن زيد[1].

ومن ثم فمهادنتهم الآن أولى من الدخول معهم في حرب قد يكون فيها القضاء المبرم على الإسلام والمسلمين

ثم إن بين هؤلاء من يظهر الإسلام ويدعيه فينطقون بالشهادتين ويقيمون شعائر الصلاة فلا مبرر لقتالهم لأن الرسول ﷺ قال: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله "، وهؤلاء قد قالوها وحتى إذا كانوا قد أوقفوا ركن الزكاة الآن فقد يقوى إيمانهم ويعدلون عن موقفهم هذا في المستقبل ويؤدون هذا الواجب مرة ثانية.

ولكن هذه الحجج لم تثن أبا بكر عن موقفه بل تزيده إصراراً على المضي للقتال لأن الإسلام كل لا يتجزأ وإنه لا مجال للمساومة في أحكامه وإن من ينقض ركن الزكاة اليوم لابد وأن ينقض ركن الصلاة وغيرها غداً ولذا لابد وأن توضع الأمور في نصابها الصحيح فوراً، ونصابها الصحيح القتال ولا شيء غير القتال.

وقد أدرك أبو بكر هذا بشفافيته وقوة إيمانه وشده ورعه ألم يقل له عمر حين المبايعة على الخلافة أنت أفضل منى - أي أنت أكثر إيماناً وأشد ورعاً - فهذا هو معيار الأفضلية في الإسلام فالتقوى هي أساس التفاضل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [2]، ومن ثم، فإنه لما رأى عمر تصميمه على القتال، أدرك بسريرته النقية، أنه الحق فوافقه ومضى معه وكذا كل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

٣- الشورى في أرض العراق والشام:

لما فتح الله على المسلمين سواد العراق رأى عمر أن مثل هذا الفتح

ولقد كان لكثرتهم الفائقة أثر بالغ في تردد الصحابة، وخوفهم من الإقدام على حرب خاسرة، ولكن أبى الله إلا أن يحق الحق ويبطل الباطل، وينصر دينه بفضل إصرار أبى بكر رضي الله عنه.

(١) المرجع السابق ص ٢١١.، وعبقرية عمر للأستاذ عباس محمود العقاد ص ١٤٣.

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

لا يكون كل يوم، وإن الأرض هذه إذا قسمت بين المقاتلين، لن يبقي شيء لمن بعدهم ولن يبقى لبيت المال مورد ثابت، ولكن عمر لم يجد نصا من كتاب أو سنة يعتمد عليه في إمضاء رأى يرى فيه الخير، وألحق فما أستبد برأي وإنما دعا كبار الصحابة واستشارهم، فرأى عامتهم أن يقسمه وكان بلال ابن رباح أشدهم في ذلك وكان رأى عمر أن يتركه ولا يقسمه، فقال اللهم اكفني بلالاً وأصحابه.

مكثوا يبحثون الأمر يومين أو ثلاثة، حتى وجد عمر حجة ودليلاً من القرآن فقال إنى وجدت حجة قال الله تعالى:﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)، حتى فرغ من شأن بين النضير فهذه عامة في القرى ثم قال:﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(٢)، ثم قال:﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (٣).

ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤). فهذا ما بلغنا - والله أعلم - للأنصار خاصة.

ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال:﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

فكانت هذه عامة للمقاتلين وغيرهم فكيف أُقسمها بينهم، فيأتي من

(١) الآيات ٦ من سورة الحشر.
(٢) الآية ٧ من سورة الحشر.
(٣) الآية ٨ من سورة الحشر.
(٤) الآية ٩ من سورة الحشر.
(١) الآية ١٠ من سورة الحشر.

بعدهم، فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ما هذا بالرأي.

فقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج - الناس الذين يعملون على زراعتها - إلا مما أفاء الله عليهم.

فقال عمر: ما هو إلا كما تقول، وإني لأدري ذلك، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها، فما يسد الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق؟

فأكثروا على عمر وقالوا: نقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا، على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولا أبناء القوم ولا أبناء أبنائهم، ولم يحضروا، فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأي، قالوا: فاستشر.

فاستشار المهاجرين الأولين، فاختلفوا فأما عبدالرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر، فصرفهم، وأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا عرض رأيه، وحجته، وقال: إنى لم أزعجكم إلا أن تشتركوا في أمانتي، فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي معكم من كتاب الله ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق، قالوا: نسمع يا أمير المؤمنين، قال: قل أعوذ بالله أن أرتكب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيتهم غيره، لقد شقيت، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وإنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها، فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة، ولمن يأتي بعدهم، أرأيتم هذه الثغور والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر، ولابد من شحنها بالجند وإدراء العطاء عليهم؟ فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج؟ أي ملاك هذه الأرض.

فقالوا جميعاً: الرأي رأيك، فنعم ما قلت، ورأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال، ويجرى عليهم ما يتقون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم.

قال: قد بان لي الأمر، فمن رجل له جزاله وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف، وقالوا: تبعثه على أهم من ذلك، فإن له بصراً وعقلاً وتجربة فأسرع إليه عمر فولاه أرض السواد [1].

* * *

(١) انظر: ملامح الشورى ص ٢٣٩-٢٤٠ نقلا عن أخبار عمر ص ٩١، وانظر أيضاً تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري ص ٩٣-٩٤، والمدخل لدراسة الفقه الإسلامي للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى.

obeikandl.com

الأساس الثامن:

إيجاد مجتمع قوي مناضل

إن إيجاد مجتمع قوي فاضل إنما هو من أبرز وأسمى غايات التشريع الإسلامي.

والقوة التي ينشدها الإسلام لأبنائه ليست هي تلك القوة الغشوم التي تقوم على البطش والقهر والظلم والعدوان وسفك دماء الضعفاء وأكل أموالهم بالباطل وليست قوة الصلف والغرور والتعالي على الحق.

إنها القوة التي تذود عن الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وتحقق للإسلام والمسلمين العزة والسؤدد والمنعة.

فالحق إن لم يكن بإزائه قوة رادعة تحرسه، وتدب جحافل الشر عنه اجتاحه الباطل، وارتدى عباءته، وأعلن عن نفسه بكل صفاقة، أنه هو الحق المبين ثم يجند كل وسائل إعلامه وحملة مباخره وأبواقه، وكل ما لديه من فرق الضلال والتضليل لتزييف الحقائق وخداع البسطاء والسذج بإيهامهم.

إن أرباب هذه القوة ليسوا إلا ملائكة مقربين حتى وإن كانت الشياطين تضجر من فظائعهم، وتشمئز من بشاعة جرائمهم، وفظاعة خستهم، فهؤلاء المزيفون للحقائق قد غدوا أمهر من سحرة فرعون في الكذب والخداع والتمويه، لأنهم قد تعلموا كل فنون التمويه بأساليب عصرية عملاقة لا بتلك الأساليب البدائية التي تربى عليها سحرة فرعون إنها أساليب حضارة القرن العشرين أو بالأحرى جهالته.

إن هذه الأساليب لم تعد تخدع السذج والبسطاء فقط كما كان الحال في الماضي وإنما غدت تخدع الآلاف الملايين من ذوي الثقافات العالية والعقول المتفتحة الواعية، وهذا هو مكمن الخطورة حقاً. لأن كلا من الكذب والختل والتمويه قد تجسد في لغة هذا العصر، وغدا كل من الصدق والصراحة والوضوح أبعد ما يكون عن منطق هذه اللغة، وقد لمسنا بأنفسنا جميعاً في مناسبات عدة كيف إن الباطل أصبح يتكلم مزهوا

بكل صفاقة بلسان الحق ولا يجد من يدفعه، وما ذلك إلا لأنه يملك القوة.

وهذا ما ينبغي التحذير والحذر منه لأن منهج الإسلام في الإبلاغ والدعوة لا يقر ولا يعرف مطلقا لغة الخداع والتضليل، وإنما هو الصراحة كل الصراحة والوضوح كل الوضوح.

لهذا تعتبر القوة من ألزم اللوازم للدولة الإسلامية خاصة في عصرنا هذا حيث يتربص الجميع بها الدوائر من كل حدب وصوب رغم اختلاف مللهم وتنافر مذاهبهم وعداء بعضهم لبعض، إلا أنهم في عدائهم للإسلام يتحدون جميعاً كأرباب ملة واحدة.

ومن ثم نجد الإسلام يحث أبناءه على الأخذ بكل أسباب القوة حيث يقول الله ﷻ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١)، فكلمة قوة تفيد العموم لأنها نكرة، ومعنى ذلك أنه يجب على المسلمين أن يأخذوا بكل أسبابها سواء كانت قوة عسكرية أو اقتصادية أو علمية أو روحية.

ويقول الرسول ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»**.

وكان ﷺ يحث الصحابة أن يدربوا أبنائهم على كل أعمال الفروسية وكل النشاطات الرياضية التي كانت سائدة بينهم إذ كان ﷺ يقول لهم: **«علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل»** وكان تأكيد الرسول ﷺ على هذه الأمور الثلاثة لا باعتبارها ألعاباً للتسلية والترفيه، كما هو حادث بالنسبة للعبة الكرة في حياتنا المعاصرة ولا باعتبار هذه الألعاب غاية في ذاتها ولكن باعتبارها وسيلة لاكتساب القوة والمهارة في ساحات القتال، فكانت ميادين هذه الألعاب بمثابة معسكرات التدريب في القوات المسلحة الآن.

ومن ثم فالقوة في الإسلام ليست قوة الشعارات المزيفة التي تتنافى مع الواقع ولا قوة الكلمات الحماسية والخطب النازية، والقصائد العصماء ثم تتمخض هذه الكلمات عن خواء فارغ وطبل أجوف في ميادين القتال!

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنفال.

أجل إن القوة في الإسلام ليست من هذا القبيل الذي رزئنا به الآن في حياتنا المعاصرة.

إن القوة في الإسلام تعتمد على ركائز ثابتة ودعائم راسخة لا يختلف عليها اثنان، وتؤدي إلى النصر حتماً لو توافرت لدى أي امة من الأمم.

وهذه الركائز تتمثل في الآتي:

١- الأخذ بكل أسباب العلم.

٢- الإخلاص في العمل.

٣- استغلال الوقت وعدم إهداره فيما لا يفيد.

٤- التضامن والإخاء.

٥- تربية أفراد الأمة على العزة ورفض الظلم.

٦- حرية الرأي في إطار الشرع.

٧- تعميق معنى الجهاد في النفوس واعتبار الاستشهاد في سبيل الله هو غاية الغايات.

وسنبين مدى عناية الإسلام بكل ركيزة من هذه الركائز إن شاء الله تعالى.

* * *

obeikandl.com

الركيزة الأولى للقوة في الإسلام:

العلـم

العلم يحتل الإسلام أسمى منزلة وأعلى مكانة ويكفي في الدلالة على ذلك أن تكون أول سورة نزلت في القرآن الكريم متعلقة بالعلم وهي قوله ﷻ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ (١)، فالقراءة هي باب العلم ومفتاحه وبدونها لا يكون ثمة وجود لأي علم.

بل ويكفي للدلالة على ذلك أيضاً أن يقسم الله ﷻ بالقلم حيث يقول ﷻ: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ (٢)

فالقلم هو أعظم آلات العلم، ويكفي أنه عن طريقة ينتقل تراث الإنسانية في شتى مجالات العلوم من جيل إلى جيل، وبدونه تنقطع أواصر العلم بين الأجيال ويندثر السواد الأعظم منه، فمداد القلم وأحباره، إنما هي مشاعل نور على طريق البشرية جمعاء، ومن ثم فالقلم هو أستاذ الأجيال ومعلم الشعوب والأمم فاستحق أن يقسم الله تعالى به للفت أنظار المسلمين إلى مدى أهميته ومدى أهمية العلم في نفس الوقت، لأن القلم وسيلة والعلم غاية، وإذا كانت الوسيلة إلى العلم مكرمة في الإسلام فمقتضى ذلك أن تكون الغاية المتمثلة في العلم أكثر تكريماً.

وكفى بالعلم شرفاً وتكريماً في الإسلام تدوينه لكتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين.

ولبيان مدى أهمية العلم والإسلام نرى أن الله ﷻ قد رفع من شأن العلماء إلى درجة لا يمكن أن يتصورها بشر ولا تخطر بخلد أحد حيث أشهدهم ﷻ على وحدانيته ﷻ بعد أن شهد الحق نفسه بذلك.

وفي هذا المعنى يقول ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ

(١) الآيات ١-٥ من سورة العلق.
(٢) الآيات ١-٤ من سورة القلم.

ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١).

ويقول الله ﷻ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢).

وبين الله تعالى انه لا مجال للتسوية بين أولى العلم وغيرهم حيث إن أولى العلم يتسمون بالتذكر والتدبر وتقدير الله حق قدره وهذا بخلاف غيرهم إذ يقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٤).

ولما كان العلماء يعرفون الله حق المعرفة ويدركون مدى قدرته وعظمته كانوا أكثر الناس خشية منه ومن ثم يقول الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٥).

ويؤكد الرسول ﷺ فضل العلماء أيضاً في كثير من الأحاديث، فمن ذلك قوله ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»** (٦).

ويقول: **«فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»** (٧).

ويقول أيضاً: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»** (٨).

---

(١) الآية ١٨ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ١١ من سورة المجادلة.
(٣) الآية ٩ من سورة الزمر.
(٤) الآية ١٩ من سورة الرعد.
(٥) الآيات ٢٧، ٢٨ سورة فاطر.
(٦) خلق المسلم، ص ٢١٧ نقلا عن البخاري.
(٧) المرجع السابق، ص ٢١٧ نقلا عن الترمذي.
(٨) المرجع السابق، ص ٢١٧ نقلا عن البخاري.

وكذلك يقول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» (١).

ويقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة».

وقد روي عن معاذ بن جبل ﷺ كلام عظيم ورائع في بيان مدى فضل العلم وأهميته في الإسلام حيث يقول: " تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربه، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الإخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدي بفعالهم وينتهي إلى رأيهم.

ترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم... لأن العلم حياة القلوب من الجهل. ومصابيح الإبصار في الظلم ويبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام... وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء (٢).

والعلم الذي يحث الإسلام على تعلمه هو العلم النافع للبشرية بكل صوره وأشكاله، وليس قاصراً على العلوم الدينية كما قد يتوهم البعض، ومما يؤكد ذلك ما يأتي:

أولاً: القرآن يحثنا على الأخذ بكل أسباب القوة - كما سبق أن عرفنا - والقوة الحقيقية تتوقف على كل الدراسات العملية من رياضيات وكيمياء وطب وعلوم هندسية وغيرها، ومن القواعد الأساسية في الفقه أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن ثم يكون تعلم هذه العلوم والتعمق فيها واجباً، خاصة في حياتنا المعاصرة ولو أن المسلمين فهموا تعاليم دينهم حق الفهم والتزموا بها كل الالتزام لكانوا رواداً لغيرهم في جميع مجالات هذه العلوم، ولكننا للأسف البالغ حصرنا الدين في زاوية

(١) المرجع السابق، ص ٢١٧ نقلا عن البخاري.
(٢) خلق المسلم لفضيلة الشيخ محمد الغزالي ص ١٢٩-٢٢٠ نقلا عن بن عبد البر.

العبادات وفقط ثم عزلناه تماماً عن كل جوانب حياتنا العملية والعملية فتقدم علينا غيرنا بمراحل شتى، وتخلفنا عنهم تخلفاً ذريعاً، ونسبوا تخلفنا هذا إلى الدين بينما الدين بريء كل البراءة من هذا التخلف.

ثانياً: الإسلام أمرنا بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، والنظر في خلق الإنسان - وسبق أن عرفنا الكثير من الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الشأن- والمراد بالنظر هنا هو محاولة معرفة أسرار الكون، وكافة مخلوقات الله تعالى، ومن ثم فكل ما يوصل إلى كنه هذه المخلوقات ومعرفة أسرارها من كل أسباب العلم يكون مطلوباً شرعاً.

ثالثا: نرى أن القرآن الكريم، وهو يعرض لقصة آدم عليه السلام، يشير إلى مدى أهمية العلم بالأمور الدنيوية، حيث عقد الله سبحانه وتعالى امتحان مسابقة بينه عليه السلام وبين الملائكة، ومن ثم أدركت الملائكة أن آدم أعلم منها فاستحق التقدير والتكريم.

وحين ننظر إلى الأشياء، التي عرف آدم أسماءها نجد أنها أسماء المسميات دنيوية، إذن لم يكن علم آدم الذي تفوق به على الملائكة علما دينيا وإنما هو علم بأمور دنيوية وهذا بإجماع المفسرين.

وإذا كان القرآن الكريم لا يسوق قصص الأنبياء والمرسلين بغرض التسلية وشغل وقت الفراغ، فيما لا يفيد، وإنما يسوقها للعظة والعبرة ليستفيد منها المسلمون في حياتهم.

ومن بين ما يستفيده المسلمون من قصة آدم عليه السلام، وجوب الأخذ بأسباب العلوم الدنيوية، وأن يكونوا سباقين لغيرهم، فيها لأن خطاب القرآن الكريم موجه إليهم قبل غيرهم، ولأنه إذا كان محل تقدير الملائكة لمعرفته بأسماء المخلوقات الدنيوية ألا يكون هذا حافزاً أن نتعمق أسرار هذه المخلوقات، ونعرف كنهها وتركيباتها ووظائفها لتحقق الحكمة الإلهية من جعل الإنسان خليفة في الأرض لأعمار هذا الكون، ومن ثم يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ

ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١).

ومما يلاحظ هنا أن الأمر بالسجود لآدم، إنما كان بعد هذا الاختبار المتعلق بأمور وعلوم دنيوية، وذلك حسب ما يفيده ترتيب الآيات القرآنية هنا. ويستفاد من هذا أن الأمر بالسجود إنما كان في حفلة تكريم لآدم بسبب تفوقه على الملائكة في هذا الاختبار. ومن المعروف أن السجود لآدم، إنما هو سجود تكريم.

رابعاً: إن الله تعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أنه سخر لنا جميع ما في السماوات وما في الأرض حيث يقول ﷻ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾(٢)، وذلك بغرض الاستفادة منها، ولا يمكن الاستفادة منها على الوجه الأكمل إلا عن طريق العلوم الدنيوية، لذا كان تعلم هذه العلوم واجباً على المسلمين بطريق الكفاية لكي تتحقق الحكمة الإلهية من تسخير هذه الأشياء لنا، ومن ثم يجب على المجتمع الإسلامي أن يعد من أبنائه الكثير من العلماء في شتى المجالات ليحققوا له الغاية المرجوة من تسخير جميع الكائنات له.

ويلاحظ كذلك أن المسلمين هم المخاطبون بذلك قبل غيرهم فكان مقتضى هذا أن يكونوا أهم الرواد في جميع مجالات العلوم، وأن يكونوا أكثر الاكتشافات العلمية على أيديهم، ولكن للأسف البالغ قد اقتصر اهتمامنا بالشريعة على جانب العبادات وفقط، ثم أغفلنا باقي جوانبها الأخرى، وبهذا نكون قد حصرناها في رواية ضيقة جداً، وهذا يعتبر أكبر جناية عليها وأكبر جناية على أنفسنا في الوقت ذاته.

خامساً: القرآن الكريم، قد تضمنت آياته الكثير من الحقائق العلمية التي لم تقف البشرية على أسرارها إلا حديثا، ورغم أن الرسول ﷺ كان أميًّا وإن البيئة التي نزل فيها القرآن يغلب عليها الطابع البدائي فلا شأن لها على

(١) الآية ٣٠-٣٤ من سورة البقرة.
(٢) الآية ١٣ من سورة الجاثية.

الإطلاق بمثل هذه العلوم ولا تلك المعارف، مما لا يدع للشك لدى أي باحث منصف أن ورود مثل هذه الحقائق العلمية في القرآن الكريم، إنما يدل دلالة قاطعة على أن هذا الكتاب ليس إلا من لدن حكيم عليم.

وليس معنى هذا أن القرآن الكريم كتاب علمي، وإنما كتاب هداية، وأما هذه الإشارات العلمية التي وردت به، فالغرض منها أمران: أحدهما بيان بعض جوانب الإعجاز في هذا الكتاب المحكم، والثاني: لفت أنظار المسلمين إلى هذه الحقائق لدراستها ومعرفة أسرارها والاستفادة منها في مناحي الحياة.

ومن هذه الآيات ما يأتي:

١- قوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿(١)﴾.

٢- وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ (٢).

٣- وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

٤- وقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (٤).

٥- وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (٥).

٦- وقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١).

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ٦٦ من سورة النحل.
(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.
(٤) الآية ٤٠ من سورة النور.
(٥) الآيات ٦، ٧ من سورة النبأ.
(١) الآية ١٥ من سورة النحل.

٧- وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

٨- وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

٩- وقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ (٣).

١٠- وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (٤).

١١- وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (٥).

١٢- وقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (٦).

١٣- وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (٧).

١٤- وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

---

(١) الآية ٣٦ من سورة يس.
(٢) الآية ٩٩ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٧٥ من سورة الواقعة.
(٤) الآية ٤٥ من سورة النور.
(٥) الآية ١١ من سورة فصلت.
(٦) الآيات ٢٧-٣٢ ٣٠ من سورة النازعات.
(٧) الآية ٦١ من سورة الفرقان.
(١) الآية ٥ من سورة يونس.

١٥- وقولـه تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (١).

١٦- وقولـه تعـالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

١٧- وقولـه تعـالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ (٣).

١٨- وقولـه تعـالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (٤).

١٩- وقولـه تعـالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ (٥).

٢٠- وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ ﴾ (٦).

٢١- وقولـه تعـالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ (٧).

٢٢- وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٨).

* * *

(١) الآيات ١٥، ١٦ من سورة نوح.
(٢) الآية ٨ من سورة النحل.
(٣) الآية ٤١، ٤٢ من سورة يس.
(٤) الآية ٦ من سورة الزمر.
(٥) الآيات ٣، ٤ من سورة القيامة.
(٦) الآية ٢٨٨ من سورة البقرة.
(٧) الآية ٣٣٣ من سورة البقرة.
(٨) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام.

الركيزة الثانية في الإسلام:

العمل

تعريفه

العمل هو كل جهد يبذله الإنسان بدنيًّا أو ذهنيًّا أو هما معاً لاستثمار ما سخره الله لنا من خيرات.

مدى أهميته في الإسلام:

ليس ثمة تشريع في الدنيا قدر العمل حق قدره كالتشريع الإسلامي.

ويكفى للدلالة أن يعتبره الإسلام عبادة ومكفراً لكثير من الذنوب والخطايا، أن يكون كالجهاد في سبيل الله، بل ولا أدل على ذلك أيضا من أن يرفع الرسول ﷺ يداً خشنت من كثرة العمل ويقول:«**هذه يحبها الله ورسوله**».

ومما يؤكد ذلك أن الإسلام قد اعتبر الكسب الذي يأتي عن طريق العمل هو أفضل أنواع الكسب، ومن ثم يقول الرسول ﷺ:«**أفضل الأعمال الكسب الحلال**» (١) ويقول:«**خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح**» ويقول:«**إن أطيب ما أكلتم ما كسبتم**»، ويقول:«**ما أكل أحدا طعاما قط خيراً من أن يأكل بعمل يده وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يديه**» (٢).

---

(١) الاقتصاد للدكتور الطحاوي جـ١ ص ٢٤٣.

(٢) المرجع السابق نقلا عن صاحب التاج.

ولكن ثمة سؤال يثيره هذا الحديث وهو: ماذا خص النبي ﷺ داود علية السلام بالذكر هنا دون الأنبياء جميعا رغم أنهم أيضا كانوا يعملون ويأكلون من عمل أيديهم؟

نرى أن السبب في ذلك هو أن داود لم يكن نبياً وفقط وإنما كان ملكاً كذلك، ولكن رغم الملك وأبهته والسلطان وعظمته، ورغم الأموال الطائلة التي تفوق الحصر والتصور، رغم ذلك كله نراه يعمل بيده ليأكل من كده وعرقه ولم يركن إلى مظاهر الملك أبدا.

هذا وإن دل على شيء، فإنما يدل على مدى قداسة العمل عند هذا النبي العظيم وإن الطعام الذي يقتاته من عمل يده أطيب عند الله من كل خيرات هذا الملك، ولأن داود نبي أكثر منه ملكاً فهو يبغي رضاء الله تعالى بالعمل دون أي اعتبار بمظاهر الملك.

هذا من جهة من جهة أخرى ليكون أسوة لكل المؤمنين على مدار التاريخ، فلا يركنوا

والإسلام في مجال تكريمه للعمل لا يغض من شأن أي نوع من الأعمال ما دامت هذه الأعمال لا تتعارض مع مبادئ الشريعة وتعاليمها كالقمار والدعارة والتجسس على المسلمين.

ومعنى ذلك أن العمل في ذاته له قيمة عظمى في الإسلام بغض النظر عن نوعه وطبيعته، فالإسلام لا ينظر إلى أي عمل نظره امتهان، أبدا ما دام يغني صاحبه عن ذل السؤال والحجة، ومادام يحقق منفعة للمسلمين ويعود بالخير على صاحبه وللآخرين، ومن ثم يقول الرسول ﷺ: **«لأن يحمل الرجل حبلاً فيتحطب به ثم يجيء فيضعه في السوق فيبيعه ثم يستغني فينفقه على نفسه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»** وفي رواية: **«لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»**، فالإسلام ينظر إلى العمل باعتباره سياجاً منيعاً يحمي عزة المسلم وكرامته من الفاقة العوز.

ولهذا يقول الرسول ﷺ: **«إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس»**.

ويضرب الرسول ﷺ درساً عمليًّا في هذا المضمار فقد روي عن أنس ﷺ: أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله - أي طلب منه صدقة - فقال له: **«ما في بيتك شيء؟»** فقال: بلى جلس يلبس بعضه، ويبسط بعضه وقعب يشرب فيه الماء، قال: **«ائتني بهما»** فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ وقال: **«من يشتري هذين؟»** قال رجل أنا آخذهما بدرهم، قال: **«ومن يزيد على درهم - مرتين أو ثلاثا -»** فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري، وقال: **«اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشتر بالأخر قدوماً فأتني به»**، فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده ثم قال: **«اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما»** فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم،

إلى ما حباهم الله من ثروات وأموال، دون عمل، وإنما عليهم أن يعملوا لأن في العمل قوة لهم وعزة وكرامة.

وحينما ضرب نبينا محمد ﷺ المثل بداود عليه السلام، فإنما فعل ذلك لنحتذي به في هذا الشأن من أجل عزتنا وكرامتنا.

فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة**».

إذن فالعزة التي يحرص الإسلام على تحقيقها للمسلمين ليست عزة ادعاء كاذب، ولا عزة شعارات خادعة براقة، وإنما هي عزة تنبثق من العمل بالدرجة الأولى كما بين الرسول ﷺ.

وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ " كان الصديق ﷺ بزازاً، وعمر بن الخطاب يعمل في الأديم، وعثمان كان تاجرا، يجلب الطعام فيبيعه، وعلي كان يكتسب، فقد صح أنه كان يؤاجر نفسه ".

وإذا كان هذا هو شأن الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم وشأن صحابة رسول الله ﷺ إزاء العمل، ولم تمنعهم مكانتهم السامية والمرموقة في نفوس أتباعهم من مزاولته مهما بدا هيناً ومتواضعاً، حتى أن بعضهم كان في سعة وبحبوحة بل وفي غاية اليسار، ومع ذلك لم يهملوا العمل ركوناً إلى مكانتهم السامية.

وكما أن المكانة السامية لا تحول دون العمل في الإسلام، أبدا ولا تتنافى معه مهما كان بسيطا، فكذلك لا يحول الثراء البالغ دون العمل في الإسلام أيضاً. فمهما كان الشخص ثرياً لا يغض من شأنه أن يباشر أي عمل بنفسه، فالعمل في الإسلام شرف لا يدانيه شرف.

والشخص الذي يعتمد على ثرائه ويأنف العمل مبغوض في الإسلام، ومن ثم يقول الرسول ﷺ: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفي الفارغ**» أي الذي لديه ما يكفيه ولا يعمل اتكالاً على ثرائه وغناه.

إتقان العمل واجب في الإسلام:

إذا كان الإسلام يطلب من المسلم أن يعمل صيانة لكرامته، وحرصاً على عزة أمته، فإنه يحثنا في الوقت ذاته على إتقان العمل، وإجادته، والإخلاص كل الإخلاص فيه، حتى يكون محل قبول من الله تعالى ولذا يقول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن**» ويقول: «**إن الله يحب إذا عمل احكم عملاً أن يتقنه**».

ولو أننا كمسلمين أخذنا بمقتضى هذا الحديث، وطبقناه في حياتنا لكنا

أكثر بلاد العالم كله تقدما، وحضارة، فنحن نرى أن كل المصنوعات الجيدة لها مكان الصدارة في كل أسواق العالم، حيث تسبقها شهرتها في الجودة والإتقان بينما نصاب بصدمة كبرى، وخيبة أمل عظمى، لقلة مصنوعات الدول الإسلامية وعدم جودتها، واعتمادهم الكامل على ما يصنعه غير المسلمين ولو أخذنا بتعاليم الإسلام هنا وتوجيهاته لما غدا هذا حالنا.

العمل في الإسلام عبادة وجهاد في سبيل الله:

بلغ من تقدير الإسلام للعمل أنه اعتبره عبادة كالصلاة والصيام والحج، وليس معنى ذلك أن نستغني به عن الصلاة والصوم وغيرهم من سائر العبادات الأخرى، كما يذهب بعض العلمانيين حيث منعوا صوم رمضان في بعض الدول الإسلامية بزعم أنه يؤثر على العمل والإنتاج.

ونقول لهؤلاء: إنه لا تغني عبادة في الإسلام عن عبادة أخرى، فالصلاة لا تغني عن الصوم ولا عن غيره والصوم لا يغني عن الصلاة أو غيرها وكذلك لا يغني العمل عن غيره أيضاً.

ومما يؤكد أن العمل في الإسلام عبادة أن الله تعالى قرنه بالصلاة وأمر به كما أمر بالصلاة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ ﴾ (٢)، وقول الرسول ﷺ: **«طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»**.

بل ومما يؤكد ذلك أيضاً أن الإسلام جعله مكفراً لكثير من الذنوب والخطايا، ومن ثم يقول الرسول ﷺ: **«من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له»** ويقول: **«من بات كالا من طلب الحلال بات مغفوراً له»** (٣)، ويقول: **«إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الحج ولا العمرة، يكفرها**

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة.
(٢) الآية ١٥ من سورة الملك.
(٣) مشكلة الفقر للدكتور القرضاوي ص ٤٤ عن أبي عساكر.

الهموم في طلب المعيشة» [١].

ولا يقف الأمر بالإسلام في تقدير العمل إلى هذا الحد، وإنما يعتبره كالجهاد في سبيل الله، ومن ثم يقول الرسول ﷺ:**«طلب الحلال جهاد»** [٢] وروي أن النبي ﷺ كان مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال النبي ﷺ:**«لا تقولوا هكذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعيفة ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله»** [٣].

ويقول عمر ﷺ: ما من حال يأتيني عليها الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحب من أن يأتيني وأنا ألتمس من فضل الله " [٤] ثم تلا قول الله ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [٥].

الإسلام يمقت البطالة ويرفض التسول:

إذا كان الإسلام قد كرم العمل إلى أبعد حدود التكريم، كما سبق أن عرفنا، فإنه بنفس القدر، قد هاجم البطالة، حتى ولو كانت بسبب التفرغ للعبادة، ومن ثم فقد روي عن مسلم بن يسار قال: إن رفق من الأشعريين كانوا في سفر، فلما قدموا قالوا: يا رسول الله ليس لنا أحد بعد رسول الله ﷺ أفضل من فلان وفلان، يصوم النهار فإذا نزلنا قام يصلي حتى نرتحل، قال:**«من كان يمهن له أو يكفيه أو يعمل له»** قالوا كلنا، قال:**«كلكم أفضل منه»** [٦].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق

---

(١) المرجع السابق نقلاً عن الطبراني.
(٢) الاقتصاد الإسلامي للدكتور الطحاوي جـ١ ص ٢٤٨ نقلاً عن إحياء علوم الدين.
(٣) المرجع السابق.
(٤) مشكلة الفقر للدكتور القرضاوي ص ٤٣ نقلاً عن سنن سعيد بن منصور.
(٥) الآية ٢٠ من سورة المزمل.
(٦) الاقتصاد الإسلامي للطحاوي ص ٢٤٦ نقلاً عن عيون الأخبار لابن تيمية جـ١ ص ٣٢٦.

ويقول: اللهم ارزقني، فقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة " [1].

وكان ﷺ كلما مر برجل جالس أمام بيته دون عمل عنفه وقال له: إن الله يكره الرجل الفارغ لا عمل في الدنيا ولا عمل في الآخرة ".

وكان إذا مدح أحد في حضرته سأل: هل له من عمل؟ فإن قيل: نعم، قال: إنه يستحق المدح، وإن قالوا لا، قال ليس ذاك [2].

وإذا كان الإسلام يحث على التوكل، فإنه ينهي عن التواكل كان النهي، وقد خلط البعض بينهما جهلاً بالإسلام وتعاليمه بينما البون بينهما جد شاسع.

فالتوكل هو الأخذ بالأسباب مع رجاء الخير من الله تعالى كمن يبذر الحب ويرجو الثمار من الله ﷻ، وكمن يبذل جهده في المذاكرة ويفوض أمر النجاح إلى الله تعالى.

وأما التواكل: فيتمثل في عدم الأخذ بالأسباب، مع توقع النتائج كمن يجلس في عقر داره أو يتعبد في المسجد، وينتظر الرزق من الله.

وهذا فهم خاطئ في الدين وتبرير للكسل والخمول مع نسبة هذا الخمول إلى الدين، بينما هذا الدين بريء كل البراءة من ذلك الفهم الخاطئ، ومن ثم يقول الرسول ﷺ: **«لو توكلتم على الحق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**. فهي لم تنتظر أن يأتيها الرزق في أمكانها وإنما سعت إليه سعياً، ويسر الله لها الرزق بعد السعي.

ويؤكد الرسول ﷺ المعنى الحقيقي للتوكل، ويزيده إيضاحاً في هذا الحديث، حيث أراد أعرابي أن يصلي في مسجد رسول الله ﷺ فقال للرسول ﷺ، أأعقل ناقتي أم أدعها وأتوكل، فقال له الرسول ﷺ: **«بل أعقلها وتوكل»**. فهذا الرجل كان يفهم إن الأخذ بالأسباب يتنافى مع التوكل، فيبين له الرسول عليه السلام، أنه ليس ثمة منافاة بين هذين الأمرين في الإسلام أبدا، وإن توهم البعض غير ذلك فهو توهم كاذب.

ومما يروى في هذا الشأن أن شقيقا البلخي - أحد الصالحين - عزم

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.

على السفر بغرض التجارة، وقبل سفره، ودع صديقه المتصوف إبراهيم بن أدهم وكان المعهود أن تكون مدة السفر طويلة، ولكن بعد فترة وجيزة من التوديع رآه إبراهيم في المسجد، فتعجب منه، حيث عاد من السفر سريعاً، وسأله عن سبب ذلك، فقال شقيق: رأيت في سفري عجبا فعدلت عن الرحلة.

قال إبراهيم: خيراً ما رأيت؟

قال شقيق: أويت إلى مكان خرب، لأستريح فيه، فوجدت به طائراً كسيحاً أعمى، وعجبت وقلت في نفسي: كيف يعيش هذا الطائر في هذا المكان النائي وهو لا يبصر ولا يتحرك؟، ولم ألبث إلا قليلا، حتى أقبل طائر آخر يحمل له الطعام، في اليوم مرات، حتى يكتفي، فقلت: إن الذي رزق هذا الطير في هذا المكان قادر على أن يرزقني وعدت من ساعتي.

فقال إبراهيم: عجباً لك يا شقيق؟ ولماذا رضيت لنفسك أن تكون الطائر الأعمى الكسيح الذي يعيش على معونة غيره، ولم ترض أن تكون الطائر الآخر الذي يسعى على نفسه، وعلى غيره من العميان والمقعدين، أما علمت أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

فقام شقيق إلى إبراهيم بن أدهم وقبل يده، وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق، وعاد إلى تجارته " [1].

وسئل الإمام أحمد في رجل جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟

فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ:«**جعل رزقي تحت ظل رمحي**» [2].

وأسوأ ما في التواكل أنه يؤدي غالباً إلى المسألة التي نهى الإسلام عنها لأنها ذلة ومهانة يربأ بها الإسلام عن المسلمين ولا يبيحها إلا عند الضرورة القصوى بحيث لا يعتبر التواكل ولا الكسل سبباً منها، ولهذا

(١) مشكلة الفقر للدكتور القرضاوي ص ٤٠-٤١.
(٢) المرجع السابق نقلاً عن مسند الإمام أحمد.

قرر الفقهاء إن المتفرغ للعبادة لا يستحق من الزكاة ما دام قادراً على العمل والكسب [١].

وما أكثر الأحاديث النبوية التي تنهي عن المسألة.

فمنها: قول النبي ﷺ:«**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي**» والمراد بذي المرة السوي القوي السليم الأعضاء [٢].

ومنها ما رواه الشيخان عن عمر أن النبي ﷺ قال:«**ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم**».

وما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:«**من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل ليستكثر**».

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر:«**اليد العليا خير من اليد السفلى**».

روي أحمد في ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال:«**من سأل الناس مسألة وهو عنها غني كانت شيئا في وجهه يوم القيامة**».

وروي عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن النبي ﷺ قال:«**لا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر**».

وروى النسائي عن عائذ بن عمرو أن النبي ﷺ قال:«**لو يعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله**».

وروي عن قبيصة بن مخارج الهلالي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:«**لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش – أو قال: سداداً من عيش –، ورجل أصابته فاقه حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أصابت فلاناً فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش – أو قال سداداً من عيش – فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سحتا**» رواه مسلم.

---

(١) مشكلة الفقر ص ٩١ نقلاً عن المجموع جـ٦ ص١٩٠.

(٢) مشكلة الفقر ص ٤٧.

ويقول الرسول ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس**».

وفي رواية: **ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف اقرءوا إن شئتم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾**[1]، أي لا يلحون في المسألة ولا يكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه "[2].

وإذا كان الإسلام يمقت المسألة بالنسبة للفرد المسلم، لأنها نوع من الذل لغير الله تعالى فمقتضى ذلك انه يأبى كل الإباء، أن تمد أي دولة إسلامية يدها إلى أخرى غير إسلامية طالبة المعونة منها، إذ إن هذه المعونات لابد وأن يرتب عليها الكثير من الالتزامات الأدبية، تجاه تلك الدول الأجنبية وهذه الالتزامات كثيراً ما تكون على حساب قراراتها السياسية بل على حساب سيادتها وحريتها وكرامة المسلمين جميعاً.

ومن ثم، فإنا نجد الإسلام يوجب على كل دولة إسلامية، أن تبذل كل جهدها في جميع أوجه النشاط الاقتصادي، وقاية لها من ذل المسألة لغيرها، فإن عجزت مواردها عن الوفاء بحاجاتها، بعد أن بذلت كل ما في وسعها في العمل والنشاط، فحينئذ يصير واجباً على الدول الإسلامية الغنية، أن تنتشل هذه الدولة من محنتها، ولا تدعها تمد يد الحاجة، والمسألة إلى أي دولة أخرى غير إسلامية، وذلك انطلاقاً من مبدأ التكافل الإسلامي، والعزة الإسلامية.

ولا تعتبر ما تعطيه الدول الإسلامية الغنية للدول الفقيرة من قبيل الصدقات الاختيارية، وإنما هو واجب حتمي، تفرضه نصوص المسؤولية ومبادئها، فإن حدث تقصير في هذا الأمر، كانت المسؤولية عليه أمام الله ﷻ جد شديدة، وهذا فضلا عما يلحق المسلمين جميعاً من ضعف وهوان، فإن ضعف أي دولة إسلامية إنما هو ضعف لسائر الأمم الإسلامية الغني منها والفقير.

* * *

(١) الآية ٢٧٣ من سورة البقرة.
(٢) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ص ٨٧-٨٨.

أهم مجالات العمل في الإسلام

أولا: الزراعة:

ليس أدل على مدى اهتمام الإسلام بالزراعة من قول الرسول ﷺ: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر**» [1]. ففي تلك اللحظات الحرجة التي تنخلع من هولها القلوب ويهيمن الخوف و الفزع على النفوس، وحيث تتزلزل الأرض تحت الإقدام إيذاناً بيوم القيامة، نرى الإسلام يطالب كل مسلم في يده شتلة صغيرة أن يتغلب على خوفه وجزعه ويبادر بغرسها.

فإذا كان المسلم مطالباً بذلك رغم رؤيته الموت رأي العين ورغم يقينه بأن فناء الدنيا بما فيها ومن فيها أقرب إليه من حبل الوريد، فكيف يكون الحال في وقت الأمان والاستقرار أنه بلا شك لابد وأن يكون الطلب أشد وآكد آلاف المرات. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى أهمية العمل والزراعة في الإسلام.

ويقول قائل: إذا كان الشخص متأكد من قيام الساعة فما فائدة غرس الفسيلة التي معه؟

وحسب ما فهمنا لمدلول الحديث الشريف نقول: إن المراد منه ليس الحقيقة، وإنما المبالغة في حث الناس على الزراعة والعمل، وذلك كقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [2]، فليس المراد من الآية حقيقة السبعين مرة، وإنما المراد أنه مهما استغفرت لهم يا محمد، فلن يغفر الله لهم، إذ أن حقيقة العدد، لو كانت مراده لكن معنى ذلك أن الرسول ﷺ، لو استغفر إحدى وسبعين مرة، فما فوق فسيغفر الله لهم، وليس هذا مراداً بالطبع إذ يمنعه السياق.

وكذلك هنا لا يتصور أن تكون الحقيقة مراده، إذ لا يمكن أن تلزم الشريعة أحد بعمل دنيوي كالزراعة، التي تؤتي أكلها بينما القيامة معجلة فوراً.

---

(١) عمدة القارئ ١٢/١٥٥.

(٢) الآية ٨٠ من سورة التوبة.

وثمة مدلول آخر لهذا الحديث الشريف، وهو أنه لا ينبغي أن يحول أي شيء بينكم وبين الزراعة والعمل، حتى ولو رأيتم أهوال الساعة بأعينكم، فإن ما ترونه قد يكون مجرد تصور وتخيل فقط، وليس من القيامة في شيء.

وعلى كلا المفهومين فالحديث يدل دلالة أكيدة على مدى أهمية الزراعة والعمل في الإسلام كما سبق أن ذكرنا.

هذا ومن الأحاديث الواردة في هذا الشأن أيضاً قول الرسول ﷺ: «**ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**» رواه البخاري.

وقوله ﷺ: «**من كانت له أرض فليزرعها**» رواه البخاري وأبو داود والنسائي [1].

وقوله ﷺ: «**من أحيى أرضاً ميتة فهي له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين**» [2].

فهذا تشجيع بالغ من الرسول ﷺ على الزراعة ومنع التحجير الدائم.

وثبت أن النبي ﷺ كان قد أعطى بلال بن الحارث المزني أرضاً بالعقيق، فلما كان من زمان عمر ﷺ قال لبلال: إن رسول الله ﷺ لم يعطك لتحجز عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل فخذ ما قدرت على عمارته ورد الباقي " [3].

ثانيا: التجارة:

التجارة تلعب أخطر دور في حركة النشاط الاقتصادي، إذ يترتب عليها تبادل المنتجات والسلع بين الأفراد والمجتمعات، وبدونها يحدث شلل تام للكيان الاقتصادي بشكل عام، وتتوقف عجلة التقدم عن المضي

(١) الاقتصاد الإسلامي للدكتور الطحاوي ص ٢٥٦.
(٢) انظر: المبادئ الاقتصادية في الإسلام للدكتور على عبد الرسول ص ٣٨.
وانظر: الفكر الاقتصادي الإسلامي للدكتور ربيع الروبي ص ١٠٠ فقد ذكره دون الزيادة المتعلقة بالتحجير، وقال رواه وأخرجه أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي.
(٣) المبادئ الاقتصادية في الإسلام للدكتور علي علي عبد الرسول ص ٣٨.

في طريقها وتفتر الرغبة في العمل والإنتاج بسبب ركود المنتجات وبطء التوزيع أو توقفه.

والتجارة أيضاً تقوم بتقوية الصلات وتوثيق الروابط بين الشعوب والأمم، فما أكثر البلاد التي دخلت الإسلام عن طريق التجارة والسلوك الطيب الحميد للتجار المسلمين، وما كانوا يتسمون به من أخلاق إسلامية سامية، لم يألفها أرباب هذه البلاد من قبل، فبهرتهم أيما إبهار، وخاصة ما يتعلق منها بالأمانة والصدق والوفاء بالوعد وعدم الغش، ولما تأكد أرباب هذه البلاد أن الفضل في هذه الأخلاق الحميدة، إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى هذا الدين القيم أقبلوا عليه ذرافات ووجداناً بكل شوق ولهفة.

ولما كانت للتجارة هذه الأهمية البالغة نرى الإسلام قد أولاها كل رعاية وعناية، ومن ثم نرى أنه قد ورد بشأنها الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تنظمها تمضي بها على النهج القويم وتحوطها بسياج متين من الخلق الرفيع.

فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (١)، وما التجارة إلا بيع وشراء.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (٢)، فالأساس في التجارة هو التراضي الخالي من كل شوائب الإكراه.

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣).

ويقول الرسول ﷺ: **«عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق»** (٤).

---

(١) الآية ٢٧٥ من سورة البقرة

(٢) الآية ٢٩ من سورة النساء.

(٣) الآيات ١-٦ من سورة المطففين.

(٤) المبادئ الاقتصادية في الإسلام للدكتور على على عبد الرسول ص ٥٥ وقال في الهامش - وأورده الغزالي في الأحياء من حديث صحيح الإسناد.

ويقول: «اتجروا في مال اليتيم حتى لا تأكله الزكاة» [١].

ويقول: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» [٢].

وقد نهى الإسلام عن الاحتكار والغش وكل بيع فيه غرر وجهالة، وحرم الاتجار في الخمر والخنزير والميتة وكل المسكرات والمخدرات وكل ما يتعلق بالدعارة ونحوها، ووضع الكثير من القواعد والأحكام التي تضبط كل أوجه النشاط التجاري، والتي وضعت بغرض تحقيق مصالح الناس ودفع الضرر عنهم.

ثالثا: الصناعة:

إن الله ﷻ قد سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض، وأباح لنا الاستفادة على أكمل وجه ممكن، وأرشدنا إلى أن ثمة كثيراً من المعادن في باطن الأرض، وكثيراً من الأحجار الكريمة وغيرها في أعماق البحار.

ولما كانت الاستفادة من المعادن، وغيرها تتوقف بالدرجة الأولى على التصنيع فيكون ثمة توجيه ضمني لنا من قبل الله ﷻ أن نأخذ بكل أساليب التصنيع أيضاً لنكون أكثر عزة وثراء وقوة.

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤].

وعرض القرآن الكريم لنا بعض الصور والنماذج من صناعات الأمم السابقة لنستفيد منها ونحذو حذوها.

فمن ذلك قوله ﷻ بشأن نوح عليه السلام: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [٥].

---

(١) المبادئ الاقتصادية في الإسلام للدكتور على على عبد الرسول ص ٣٩.

(٢) الفكر الاقتصادي للدكتور ربيع محمود الروبي - ص ١٠٤. وقال في الهامش: أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي سعيد.

(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنفال.

(٤) الآية ٨ من سورة المنافقون.

(٥) الآية ٣٧ من سورة هود.

وقولـه تعـالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ (١).

وفـي شـأن داود عليه السلام يقـول الله تعـالى: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴾ (٢).

ويقـول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣).

وفي شـأن ذي القرنيـن يقـول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (٤).

وفـي شـأن الاستفادة من معـادن الأرض ومكوناتهـا بشكل عـام يقـول الرسول ﷺ: «**التمسـوا الـرزق في خبايـا الأرض**» (٥)، ويقول الله تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٦). ويعلـق الدكتور علي عبد الرسول على هذا النص الكريم بقولـه: والجدد البيض والحمر والسود من الجبال طبقات من الصخر مختلفة الألوان، تحتوي صنوفاً من المعادن وتمتد في رأي العين مع امتداد الجبال كأنها الجدد أي الطرق " (٧).

وفـي شـأن الاستفادة مـن خيـرات البحـار يقـول الله تعـالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا

(١) الآية ٣٨ من سورة هود.
(٢) الآية ٨٠ من سورة الأنبياء.
(٣) الآيات١٠، ١١ من سورة سبأ.
(٤) الآيات ٩٤ - ٩٧ من سورة الكهف.
(٥) المبادئ الاقتصادية في الإسلام للدكتور على علي عبد الرسول ص ٢٨، نقلاً عن المقاصد الحسنة للسخاوي، ص٨٣.
(٦) الآية ٢٧ من سورة فاطر.
(٧) المبادئ الاقتصادية في الإسلام ص ٢٧.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

ولما كان الحديد هو العمود الفقري لأكثر الصناعات، وأهمها فإنا نرى القرآن الكريم يلفت نظرنا إلى ذلك لنستفيد من بأسه وقوته إلى أبعد مدى، ومن ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢).

* * *

(١) الآية ١٤ من سورة النحل.
(٢) الآية ٢٥ من سورة الحديد.

obeikandl.com

حقوق العامل وواجباته

في الإسلام

المطلب الأول:

حقوق العامل في الإسلام

إن حقوق العامل في الإسلام كثيرة نذكر منها الآتي:

١- عدم المماطلة والتسويف في إعطائه أجره.

وذلك لأن التسويف في هذا الأمر يترتب عليه تعرض العامل للضيق والحرج والمشقة والأزمات النفسية والاقتصادية، ويوقعه في كثير من المشاكل الاجتماعية، ومن ثم فلا يشعر بالأمان ولا يحس بالاستقرار، ومن الطبيعي أن ينعكس كل هذا على العمل بالسلب والإيجاب.

ومن أجل ذلك كان التوجيه النبوي المتمثل في قوله ﷺ: **«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»** (١).

٢- عدم خصم شيء من الأجرة إذا وفي العامل بالتزامه:

وذلك لأن الخصم حينئذ يكون: ظالماً فادحاً وآكلاً لأموال الناس بالباطل، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ (٢).

كما حذر الله ورسوله من مغبة الظلم في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وقد عرضنا جانباً منها في مبدأ حماية الإسلام. للإنسان فليرجع إليه ونكتفي هنا بقول الرسول ﷺ: **«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة»**، وذكر منها قوله: **«ورجل أستأجر أجيراً فلم يوفه أجره»** (٣).

٣- أن يكون الأجر بقدر العمل:

---

(١) الاقتصاد الإسلامي للدكتور الطحاوي ص ٢٠٥ نقلاً عن ابن ماجة.

(٢) الآية ٢٩ من سورة النساء.

(٣) المرجع السابق نقلاً عن اشتراكية الإسلام.

ومعنى ذلك أن مع ما يبذله العامل من جهد وما يقتضيه في العمل من وقت وحسب طبيعة كل عمل والمرجع في كل ما تقدم هو العرف.

ومن ثم فإن الإجحاف بأجر العامل استغلالاً لظروفه وشدة حاجته للعمل يعتبر ظلماً له تأبى عنه أخلاق الإسلام، ومن ثم يقول الله تعالى: " ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [1]، فقد قرن الله ﷻ هذا الأمر بالعثو في الأرض فسادا، وذلك للدلالة على مدى بشاعة بخس الأشياء للناس، ومن هذه الأشياء العمل طبعاً.

٤- عدم تكليفه بما لا يطيق:

هذا المبدأ ينبثق من معين الرفق والرحمة في الإسلام فإن تكليف العامل بما لا يطيق يتنافى كل التنافي مع قيم الإسلام وأخلاقه، فإذا كانت الرحمة بالحيوان في الإسلام مطلوبة فكيف بالإنسان.

ومن ثم يقول الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2].

يقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [3].

ويقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [4].

ويقول الرسول ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء»** [5]، ويقول: **«دخلت امرأة في النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**، ويقول: **«لا يكون الرفق في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»** [6]، ويقول: **«من يحرم الرفق يحرم الخير كله»**، ويقول: **«إن**

(١) الآية ٨٥ من سورة هود.
(٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٢٨ من سورة النساء.
(٤) الآية ١٨٥من سورة البقرة.
(٥) الفكر الاقتصادي الإسلامي، ص ١٣٠ نقلاً عن مسلم وأحمد وأبو يعلى.
(٦) المبادئ الاقتصادية في الإسلام ص ٢٠٣ نقلاً عن صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٢ص١٤٦.

الله يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» [١]، ويقول:**«يسروا ولا تعسروا»** [٢]، ويقول:**«ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فإذا كلفتموهم فأعينوهم»** [٣]، ويقول:**«روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت»** [٤].

فهذه المبادئ العامة والتعاليم القيمة يمكن أن نضع على ضوئها ما شئنا من قوانين تتعلق بهذا الحق كالإجازات وغيرها [٥]، ومن ثم يقول الدكتور إبراهيم الطحاوي في هذا الشأن: إذا كان الأجر من صاحب العمل في مقابلة منفعته من عمل العامل، قد اقتضى أن يكون ذلك الأجر على قدر هذه المنفعة، فإنه يقتضى أيضاً العمل على قدر الطاقة، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:**«لا تكلفوهم ما لا يطيقون»** ومن ثم فإذا قررت الدولة مثلاً - بناء على ما يثبت علمياً - ألا يتجاوز وقت العمل أكثر من ساعات محددة في اليوم، فإنه يجب على صاحب العمل أن يتقيد بذلك، وينفذه جملة وتفصيلا، مما يعني أنه إذا تقررت راحات خلال العمل أو إجازات دورية - أسبوعية أو شهرية أو سنوية... إلخ - استجماماً للعامل، واستعادة لقدرته على العمل بكفاية ونشاط تطبيقاً لقول النبي ﷺ:**«إن لجسدك عليك حقا وإن لعينيك عليك حقاً...»** [٦]، فإن واجب صاحب العمل أن يتقيد بذلك وينفذه تماما، وحتى إذا أراد من العامل أن يعمل في غير أوقات العمل المقررة، فإن واجباً عليه في حال قبول العامل، لذلك أن يعطيه أجراً إضافيًّا مقابل منفعة عمله في هذا الوقت الزائد على الوقت المقرر للعمل وفق الطاقة المعتادة علميًّا، تنفيذاً لقول النبي ﷺ في

(١) المرجع السابق نقلاً عن صحيح مسلم أيضاً كتاب البر والصلة.
(٢) المرجع السابق نقلاً عن البخاري ومسلم.
(٣) الاقتصاد الإسلامي للدكتور الطحاوي جـ١ ص ٢٥٣-٢٥٤ نقلاً عن البخاري ومسلم.
(٤) المبادئ الاقتصادية في الإسلام ص ٢٠٢ نقلاً عن البخاري ومسلم.
(٥) يقول الدكتور علي علي عبد الرسول، وقد تكلم فإنه يقتضي أن يكون العمل على قدر الطاقة، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:«لا تكلفوهم ما لا يطيقون» ومن ثم فإذا قررت الدولة مثلاً - بناء على ما يثبت علمياً- ألا يتجاوز وقت العمل أكثر من ساعات محددة في اليوم، فإنه يجب على صاحب العمل أن يتقيد بذلك.
(٦) البخاري ومسلم.

ختام نفس حديثه السابق:«... فإذا كلفتموهم فأعينوهم»، فإن إعطاء الأجر الإضافي عن العمل في الوقت الزائد على تلك الساعات المحدودة أو في أوقات الراحات أو الأجازات هو بلا شك من متناول قوله ﷺ:«فأعينوهم».

كما أنه ليس من الإعانة أن يجبره على العمل في أي وقت من تلك الأوقات مهما كان الأجر إذا لم يقبل القيام به لأي سبب، إذ يكون صاحب العمل حينئذ - إذا أمر أن يقوم العامل بما طلب منه - مخالفاً لقول النبي ﷺ:«ولا تكلفوهم ما لا يطيقون».

كما أنه إذا قررت الدولة سناً معينة للالتحاق بعمل معين، فيجب على أصحاب الأعمال مراعاتها حتى لا تكون المخالفة خروجاً على عموم قول الله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ (١)، وفي الوقت ذاته يكون على الدولة تتابع مدى تنفيذ أصحاب الأعمال لذلك (٢).

٥- كفالة العامل اجتماعياً:

رغم أن المجتمع الذي بعث فيه النبي ﷺ لم يكن مجتمعاً صناعياً، يزدحم بالعمال ويعج بالمشاكل العمالية، التي تحتم على جهات التشريع في الأمة وضع حلول لها، وإنما كان مجتمعاً بدائياً تقل العمالة فيه إلى أبعد مدى، ومع ذلك فإننا نجد في ديننا الحنيف الكثير من الأحكام الشرعية التي تعالج مشاكل عمالية، لم تظهر على مسرح الحياة إلا حديثاً، وخاصة بعد النهضة الصناعية والعلمية.

ومن ذلك مثلاً إذا كان أجر العامل لا يفي بمتطلباته العادية والضرورية - من علاج ومسكن ومواصلات وغير ذلك - وجب على الدولة حينئذ أن تتدخل لتوفير هذه المتطلبات قدر المستطاع، إما من الخزانة العامة أو على حساب رب العمل أن اتسع المشروع لمثل ذلك دون ضرر غير عادي، يلحقه ولا بأس بالضرر العادي، الذي لا يترتب عليه خسارة المشروع، وذلك انطلاقاً من مبدأ التكافل في الإسلام.

---

(١) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

(٢) الاقتصاد الإسلامي جـ ١ ص ٢٥٤.

ولنمعن النظر جيداً في هذا الحديث الذي يقول الرسول ﷺ فيه:«**من ولى لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له دابة فليتخذ دابة**» (١).

٦ـ كفالته وكفالة أولاده عند الشيخوخة والعجز:

وهذه الكفالة قد ورد بشأنها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة رضي الله عنهم.

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:«**ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم:** ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ (٢)، فأيما مؤمن مات و ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه " (٣). ومعنى ضياعاً من ترك شيئاً ضائعاً كالأطفال وغيرهم. قال الخطابي: الضياع في الأصل مصدر، ثم جعل اسما كل ما هو بصدد أن يضيع من ولد أو عيال (٤).

ومن ذلك أيضاً ما روي أن عمر ﷺ مر يوماً بشيخ ضرير يسأل الناس، فضرب عضده وقال: من أهل الكتاب أنت؟ فقال يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله، فرضخ له بشيء، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته، ثم نخزه عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون، وهذا مسكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه (٥)، وكان عمر يقرر للأرامل حقهن في بيت المال وكان يقول: لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعهن لا تحتجن لأحد بعدي (٦).

* * *

(١) الاقتصاد الإسلامي جـ١ ص ٢٥٥ نقلاً عن أبي داود.
(٢) الآية ٦ من سورة الأحزاب.
(٣) المبادئ الاقتصادية في الإسلام ص ٢٠٤ نقلاً عن صحيح البخاري.
(٤) المبادئ الاقتصادية في الإسلام.
(٥) المرجع السابق.
(٦) المرجع السابق.

المطلب الثاني:

واجبات العامل في الإسلام

إن أهم واجبات العامل في الإسلام تجاه صاحب العمل تتمثل في الآتي:

١- الالتزام بأداء العمل وإتقانه. ٢- الالتزام بطاعة أوامر رب العمل.

٣- الالتزام بالمحافظة على ما يعمل.

٤- الالتزام بالمحافظة على أسرار العمل.

٥- الالتزام بعدم المنافسة أثناء العقد.

أولا: الالتزام بأداء العمل وإتقانه:

إن هذا الالتزام يعتبر من أهم التزامات العامل تجاه صاحب العمل فيجب عليه أن يقوم بأداء العمل المنوط به على أكمل وجه؛ لأنه أمانة في عنقه والله مطلع عليه ومحاسبه فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [(١)]، ويقول الرسول ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**» فإن أهمل في عمله يكون أجره حراماً، ويعتبر آكلاً لأموال الناس بالباطل.

كما يجب عليه أن يؤدي العمل بنفسه إذا كان شخصيته محل اعتبار في العقد[(٢)]، ومن ثم يقول ابن قدامة في هذا الشأن:إن كانت الإجارة على عمل في الذمة، لكنه لا يقوم غير الأجير مقامه كالنسخ، فإنه يختلف القصد منه باختلاف الخطوط، لم يكلف إقامة غيره مقامه، ولا يلتزم المستأجر قبول ذلك إن بذله الأجير، لأن الغرض لا يحمل من غير الناسخ، كحصوله منه، فأشبه ما لو أسلم إليه في نوع فسلم إليه في غيره، وهكذا كل ما يختلف باختلاف الغرض " [(٣)].

ثانيا - أن يلتزم بأطاعة أوامر رب العمل:

من الأمور التي يجب على العامل الالتزام بها تجاه رب العمل أن يطيع تعليماته الخاصة بتنفيذ العمل المتفق عليه.

---

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٢) عقد العمل، رسالة دكتوراه - للدكتور نادرة محمود سالم ص٢٠٠.

(٣) هامش المرجع السابق نقلاً عن المغني والشرح الكبير جـ٦ ص ٣٤.

ويشترط لإلزامه بتنفيذ هذه الأوامر ما يأتي:

١- **ألا تكون بمعصية** كأن يأمره بتقديم الخمر لرواد المحل الذي يعمل فيه، أو يأمره بالإفطار في شهر رمضان ليقوى على أداء العمل أو يأمره بإرتكاب جريمة معينة... إلخ.

٢- **ألا يترتب عليها تعريض العامل للخطر**، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (١).

٣- **ألا تتعارض مع بنود العقد**: فإن توافرت هذه الشروط وجب على العامل تنفيذ تلك الأوامر، وإذا اختل شرط منها فلا يكون الأمر واجب الطاعة وإذا امتنع العامل عن تنفيذه فلا يكون مخلاً بأي التزام (٢).

ثالثا: التزام العامل بالمحافظة على ما يعمل فيه:

وذلك لقول الرسول ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته»**.

فليس له أن يستعمل الشيء الذي وكل إليه العمل فيه استعمالاً ضاراً حيث لا ضرر ولا ضرار في الإسلام (٣).

رابعا: إلزامه بعدم إفشاء أسرار العمل:

من بين التزامات العامل أيضاً تجاه رب العمل، المحافظة على أسراره المتعلقة بالعمل، لأنه أمين وإفشاء أسرار العمل يتنافى مع الأمانة التي أمره الله تعالى بها ويسبب كثيراً من الأضرار لصاحب العمل، خاصة إذا كان إفشاء هذه الأسرار لمنافسيه في التجارة، أو الصناعة أو غيرهما، والقاعدة أنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، ومن ثم فإنه إذا فعل ذلك مسؤولاً مسؤولية قانونية وشرعية عما يترتب على فعله من أضرار، وذلك ما لم يكن إفشاء هذه الأسرار متعلقاً بأمور محرمة شرعاً وقانوناً، فإن كانت كذلك لزم أن يبلغ عنها الجهات المسؤولة في الدولة (٤).

* * *

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة.
(٢) عقد العمل للدكتورة نادرة محمود سالم ص ٢٠٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق ص٢١٣.